486

HARLEQUIN®

روايات أحلام

WWW.REWITY.COM
BREATHLESS

من ينقذني منك ؟

ماريون لينوكس

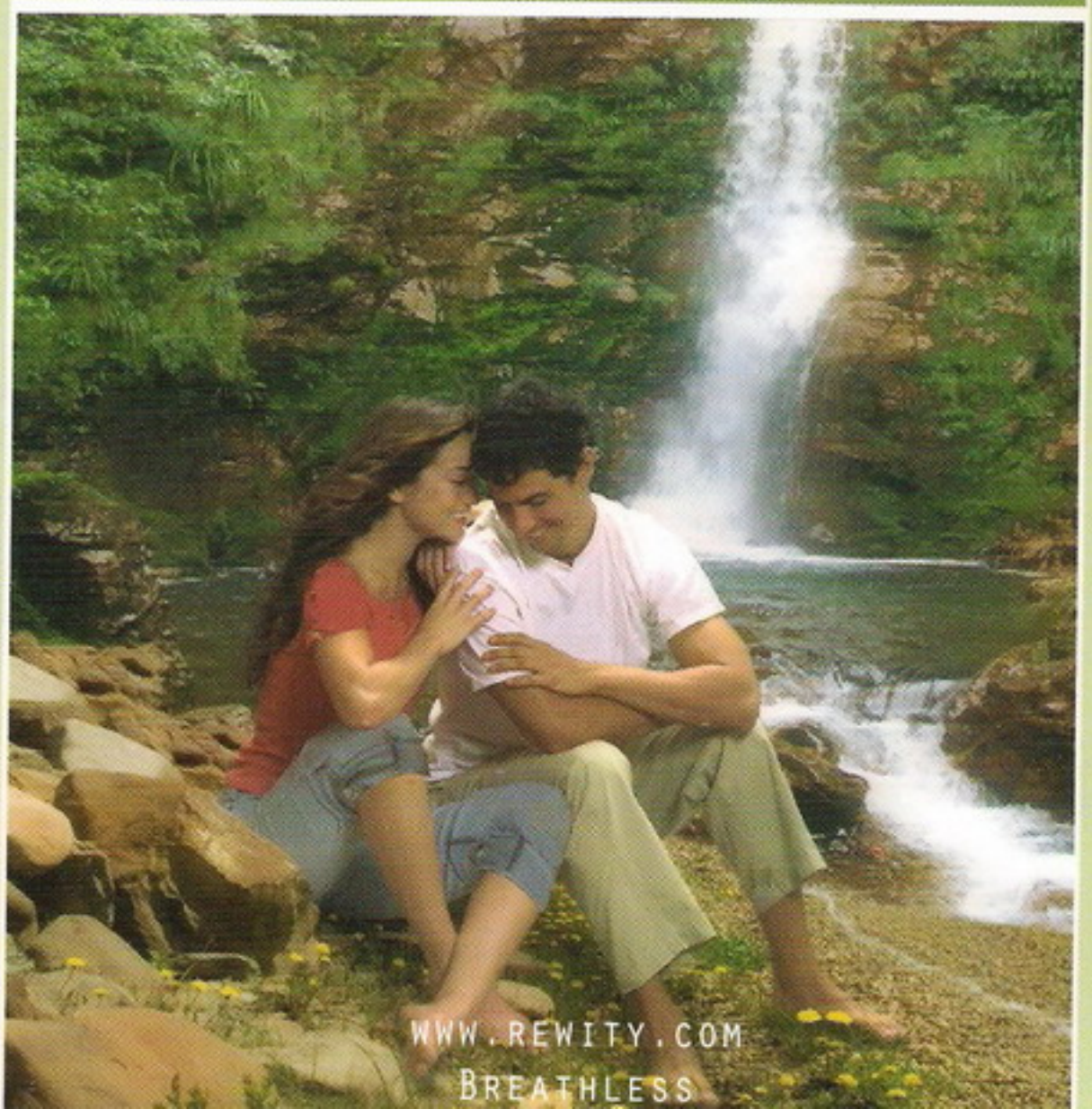

WWW.REWITY.COM
BREATHLESS

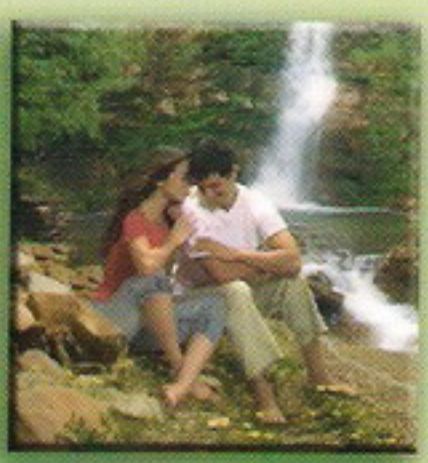

من ينقذني منك!

شاني جيفرسون ابنة وحيدة ليس لديها عائلة وهي في الوقت الراهن بلا منزل و بلا عمل. لذا تقدمت بلهفة لوظيفة مربية مقيمة لدى عائلة ما.

من الصعب جداً الاعتناء بطفل صغير... لكن بيرس ماك لاكلان لم يكن دقيقاً في قول الحقيقة، إذ ليس لديه طفل واحد، بل خمسة أطفال...

- أنا لا أهوى الأطفال... وأنا... لا أهواك أنت!

آه... آه! لماذا قالت ذلك؟ جاء كلامها من حيث لا تدري، لكن فجأة بدا لها أن من المهم أن تقوله...

توقفي عن هذا! لا تقعي في حب بيرس لأنك تشعرين بالأسف عليه!

أكملت هامسة: - فقط لأنني رقيقة القلب... -

فابتسم بيرس وقال: - كلانا... كلانا رقيقا القلب، مقدّر علينا أن نكون كذلك -.

ISBN 978-9953-15-510-4

لبنان:	3000 ل.ل	البحرين:	1 دينار
سوريا:	100 ل.س.	السعودية:	10 ريال
الأردن:	1.5 دينار	مصر:	8 جنيه
الكويت:	750 فلس	المغرب:	15 درهم
الإمارات:	10 دراهم	تونس:	2.50 دينار
قطر:	10 ريال	عمان:	1 ريال

من ينقذني منك؟

ماريون لينوكس

www.rewity.com
Breathless

روايات احلام

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: «مال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
His Miracle Bride
First Puplished in Great Britain 2005
Harlequin Mills & Boon Limited
©Marion Lennox 2007
Translation © Dar El-Farasha - 2010
ISBN 978 - 9953 - 15 - 521 - 0

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950 - 453115 -1-0961 - بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.darelfarasha.com Breathless

ماريون لينوكس

ولدت في إحدى المزارع في أوستراليا، وغادرتها فيما بعد... كتبت ماريون عدة روايات لسلسلتي «الروايات الطبية» و «الروايات العاطفية». استخدمت في بداياتها اسماً مختلفاً لكل نوع من الروايات. فإذا كنتم تملكون روايات قديمة سوف تجدون رواياتها موقعة باسم تريشا دايفيد.

بالإضافة إلى الكتابة والاهتمام بزوجها، تولي ماريون اهتمامها إلى أولادها، الكلاب، القطط، الدجاج وإلى الضيوف الذين تستقبلهم إلى مائدة العشاء. كما تعتني بالحديقة وبتنظيف المنزل، لكن هذان الاهتمامان يضيعان وقتها. أما السفر فقد وجدت فيه ماريون متعة لا تنتهي.

عندما كانت في سن المراهقة قيل لها إن لا فائدة ترجى من قراءة الروايات. والآن، أصبحت الروايات محوراً أساسياً في حياتها؛ فكتابة الروايات سمحت لها بالتنقل والسفر بصورة دائمة. وإذا كان هناك من نموذج للأشخاص الذين ينجحون في تحقيق أحلامهم فهو: ماريون لينوكس!

تمهيد

بلايك، كونور، سام، دارسي، دومينيك، نيكولاي، وبيرس. أبناؤها المنطوون على ذواتهم!

نظرت روبي إلى الرجال المصطفين قبالتها، وتنهدت. حاولت جاهدة، لكنهم لم يفهموا الأمر. هديتهم المشتركة بمناسبة عيد ميلادها السبعين تنطق بالفشل أكثر من أي شيء آخر. مع ذلك فكرت روبي أن أبناءها رائعون. رمشت لتصد دموعها، فيما حاولت أن ترى الجانب السعيد في هذه المعادلة. إن كل واحد منهم يحدث تغييراً ما في هذا العالم. يا له من تحول طرأ عليهم مذ أنقذتهم بعد أن كانوا أطفالاً مشردين!

إنهم الآن يصغون بانتباه إلى مكبر الصوت، وهذا ما يجدر بها أن تفعله أيضاً. ها هو الإيرل لوغانايك يلقي خطاباً بمناسبة افتتاح ملجئه الخاص بالأطفال المحرومين. طلب الإيرل نصيحة روبي التي كانت الرئيسة السابقة للمؤسسة الأسترالية لآباء التبني، وغمرتها السعادة لهذه الفكرة. إنه مكان يمكن للأطفال أن يجتمعوا فيه من جديد...

لكن النصيحة بالنسبة لروبي لم تكن كافية مطلقاً، لذا أقنعت أولادها أن يساهموا بخبراتهم وبدعمهم المادي، أما هم فوافقوا من دون تردد. واليوم جاؤوا جميعهم بالطائرات من مختلف مناطق العالم، فأخذوا فترة استراحة ليشاركوها في ما يسعدها. استغلوا هذه المناسبة أيضاً كي يقدموا لها هديتهم المميزة الخاصة بعيد مولدها. كان عيد ميلاد روبي في الأسبوع المنصرم. قال لها أولادها إنهم لم ينسوا الأمر، لكنهم يعلمون أنها تكره التجمعات العائلية. في الواقع ليست روبي من تكره التجمعات العائلية، بل أبناؤها هم

من يكرهون ذلك. إنهم يفرّون هاربين ما إن يلمحوا أثراً للعواطف.

القصر الذي يقع على خليج الدلافين هو مشروع عائلي. الإيرل لوغانايك أو اللورد هاميش يعتلي المسرح الآن برفقة زوجته الليدي سوزان وبرفقتهما عائلتهما الكبرى، بما فيها من أولاد وأصدقاء، وكلاب أيضاً. نظرت روبي بحزن إلى أبنائها المتبنين المصطفين أمامها، فلم تلحظ شيئاً من الابتهاج على وجوههم. هديتهم لها اليوم هي صك ملكية شقة في سيدني تطل على أحد أكثر المناظر روعة في العالم. لكن... «أي شخص يريد البقاء معك لمدة تزيد عن البضعة أسابيع، يجب أن يحظى بموافقتنا».

أخبرها أبناؤها بذلك، وتابعوا: «نحن نحميكِ من نفسك. آن الأوان كي تتوقفي عن إيواء المشردين».

فكرت روبي بحزن أنهم لم يفهموا الأمر، فيما انسابت نزولاً على وجهها المجعد دمعة شاردة. قاومت بشدة لأجلهم جميعاً، فنجحوا، لكنهم نجحوا وفقاً لشروطهم الخاصة. أخذت نفساً وهي تحاول جاهدة أن تركز مجدداً على مالكي وموظفي هذا القصر المدهش. بدا الجميع سعداء جداً، أما هي فعرفت أن هذا المكان سوف يكون ناجحاً تماماً. هل سيحظى أبناؤها بمثل هذا النجاح يوماً؟ هل سينجحون في الحب؟

لاحظ بيرس دموعها، فعلا العبوس وجهه، فيما مدّ يده ليمسك يدها. يبلغ بيرس السادسة والثلاثين من العمر، وهو مهندس معماري متألق، يبدو رشيقاً، شامخاً وواثقاً بنفسه في تعامله مع الآخرين، لكنه بالنسبة إلى روبي سوف يبقى دوماً ذاك الصبي الجائع المُستغل الذي أنقذته مراراً وتكراراً. ساهم بيرس في إنجاز هذا المشروع أكثر من أي شخص آخر، إذ قام بتصميم المنشآت الإضافية لأبنية القصر، من دون أن يتلقى أي أجر، وذلك لكي يسهّل إقامة الأشخاص في هذا البناء الذي صُمم لمساعدتهم. تعلم روبي أن بيرس استمتع بعمله هذا، لكنه بالرغم من ذلك أبقى نفسه على مسافة بعيدة.

أين هو هذا الطفل الذي أخبرها عنه؟ الأمور التي أطلعها عليها هذا الصباح تركتها مذهولة مصعوقة. بيرس كان متزوجاً، والآن زوجته متوفاة،

وهو يعتني بطفل أيضاً؟! لم تسمع روبي بأي من هذه الأخبار قبل الآن، وما كانت لتعرف بها الآن لو لم تسمع عن طريق الصدفة بيرس وهو يتحدث إلى إخوته بالتبني، وهو بالتالي أُجبِر على إخبارها.

سألها بيرس: «ما الأمر، روبي؟».

– كل ما في الأمر... أنني مرتبكة جداً. رغبتُ كثيراً بأن تحظى بعائلة لائقة خاصة بك.

أطلق بيرس ابتسامة أسى، وقال: «لدي عائلة».

كاد يقتله الإقرار بذاك القدر حتى. فكرت روبي، يا لها من عائلة! قالت: «إنه طفل واحد، استخدمت مدبرة منزل كي تعتني به. حتى إنك لن تدعني أقترب منه».

– أنت قمتِ بما فيه الكفاية، ولا يمكنني أن أسمح لك بالمزيد.

– لكنني أريد ذلك.

– لا، إنك لا تريدين. إنك بحاجة لأن ترتاحي.

بيرس رجل مستقل بذاته ومسيطر تماماً على عالمه الخاص، أما روبي فهي سيدة عجوز ركيكة. إنها محبوبة، لكنها تخطّت صلاحيات قدرتها على العمل. همست روبي: «لدي كل الوقت الموجود في العالم كي أرتاح. لكن الآن... جل ما أريده هو أن أعيش».

نظرت مجدداً على طول الصف الذي يقف فيه أبناؤها... رجالها البارزون. لا أحد منهم يعرف كيف يعيش، فكرت بذلك بحزن. لا أحد... ما يعني أنها فشلت...

١ - يوم عصيب

كانت شاني قد هيأت نفسها لتشاهد مزرعة مرعبة، لكنها في الواقع لم تتهيأ لهذا. قادت سيارتها نحو حافة الطريق، لكنها لم تعبر البوابة الحديدية. إنها ليست من النوع الذي يمكنه العيش في مزرعة. في الواقع انفجرت صديقتها الحميمة ضاحكة عندما باحت لها بمكان وجهتها. ترعرعت جولز في مزرعة، لذا أخبرت شاني عما يمكن أن تواجهه من أمور.

– الأبقار سوف تتجاهلك ما دمت بعيدة عن عجولها. العجول فضولية لكنها غير مؤذية. إذا كان هناك ثيران فلا تقتربي منها. الأحصنة ليست مخيفة حتى لو كانت كبيرة، لكن إذا قلت «بوو» لحصان ما، فسوف ينطلق هارباً. أما في ما يتعلق بالكلاب، فإن غالبية كلاب المزارع تصدر جلبة صادحة، لذا انظري مباشرة إلى عيونها، وقولي لها بنبرة آمرة: «اجلسي!».

حسناً! تدرّبت شاني على قول «اجلسي» للكلاب بنبرة آمرة، وصارت مستعدة لأي شيء... باستثناء هذا.

العديد من الأطفال جالسون على البوابة الحديدية.... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. إنهم يراقبونها. رأت جدولاً صغيراً يشق طريقاً متعرجة بين الحصى، هو نتيجة ذوبان الثلوج على الجبال. بدت الجبال البعيدة أشبه بقبعات من الثلج، على الرغم من أن الربيع أصبح في منتصفه تقريباً. بدت السهول الخضراء المتماوجة مرقطة بالأزهار الحمراء المنتشرة على مساحتها الواسعة. كانت الأبقار محتجزة بأمان داخل السياج، كما أن شاني لم تلحظ وجود حصان أو كلب، إلا أن ما شاهدته بدا أكثر رعباً. جالت نظراتها على الأولاد أمامها: فتاة، صبي، صبي، فتاة. إنهم يرتدون سراويل جينز مع

قمصان قطنية ملائمة وجزمات كبيرة. أهم أقارب؟ ربما، على الرغم من أن هناك فتاة ذات شعر أحمر وأخرى شقراء، أما الصبيان فهما أسمران. إنهم يجلسون على البوابة الحديدة الخاصة بالمزرعة، حيث وافقت أن تعمل. كانت شاني قد حشرت رسالة العمة روبي على لوحة القيادة، وذلك حتى تتمكن من قراءة التفاصيل. عادت لتقرأ الرسالة من جديد.

«بيرس لن يسمح لي بمساعدته. لطالما كان الولد الأكثر لطافة. أنا واثقة من أنك تعتقدين ذلك أيضاً، لكنه أمضى أوقاتاً سيئة جداً. والآن هذا... توفيت زوجته منذ ستة أشهر. الشبان قلقون عليه، ويقولون إن عمله يتراجع. إنه يجتاز مرحلة صعبة حسبما يقولون، كما أنه يخاطر بفقدان عقد عمل هام جداً، فهل يمكنك أن تتحملي أمر الاعتناء بطفل لبضعة أسابيع؟ إنه يبحث عن مدبرة للمنزل، لكن الشبان يقولون لي إنه واجه صعوبة في العثور على واحدة. أنا أود الذهاب، لكنهم بالطبع لن يسمحوا لي بذلك».

بدا إحباط روبي مسموعاً من خلال الرسالة. روبي الحبيبة التي أمضت حياتها في مساعدة الآخرين، يعمد أبناؤها بالتبني إلى إبقائها بعيدة عن شؤونهم، لكنها غير قادرة على الالتزام بما فرضوه عليها. بالرغم من أنها عاجزة عن المساعدة، فهي واثقة من أن شاني قادرة على ذلك. هل ستعمل شاني حقاً مدبرة منزل لدى أحد أبناء العمة روبي، وحاضنة لطفله الذي فقد والدته، في مزرعة تقع في الناحية الأخرى من العالم بعيداً عن حياتها في لندن؟ لو أنها سئلت عن ذلك في الظروف العادية، لضحكت. لكن...

بيرس أحد أبناء روبي العديدين بالتبني. هنالك أشياء عديدة تؤثر على قرار شاني بمساعدته. في الدرجة الأولى يأتي التعاطف، فهي تتذكر بيرس فعلاً. منذ عشرين عاماً كان بيرس في الخامسة عشرة من عمره وهي في سنتها العاشرة تقريباً. التقت به شاني أثناء حفل زفاف عمها إريك. كانت روبي قد آوته للمرة الرابعة، حسبما أخبرت والدتها. بدا هزيلاً جداً، وطويلاً جداً وشديد البؤس في ملابسه الأصغر مقاساً.

منذ عشرين سنة اعتقدت شاني أن بيرس يمتلك مقومات ساحرة، إذ بدت

عظامه كأنها منحوتة بعناية. لذا، بالإضافة إلى الشفقة والتعاطف أحست شاني... بالانجذاب نحوه. على أي حال، إنها فتاة كبيرة الآن، وبيرس على الأرجح أصبح رجلاً قزماً يبلغ طوله الخمسة أقدام وإنشين، ذا بطن مرتخ. أما هي فيفترض أن يكون قلبها منفطراً. هنالك أيضاً الدافع الثالث، وهو الأهم. هي لا تمتلك ما يكفي من المال كي تقيم في لندن. لقد خسرت معرضها الفني كما خسرت حبيبها. روبي قالت لها إن بيرس يمتلك مزرعة.

فكرت شاني أنها غير قادرة على البقاء هنا، فيما حدقت بالأطفال الأربعة. لكن إلى أين عساها تذهب؟ ما إن تلقت رسالة روبي حتى جاءت إلى هنا بكل بساطة، فوجدت أن والديها مسافران. حسناً! هي كانت تعرف ذلك، لكن ما صدمها هو أنهما أجّرا منزلهما. ألم يخطر ببالهما أنها قد تفرّ عائدة إلى أستراليا، لتفاجأ بأشخاص غرباء يحضرون الشواء في الحديقة الخلفية لمنزل والديها؟ شهقت شاني، لكنها لم تبكِ. هي لم تبكِ منذ البداية. كان يجدر بها أن تبكي حين وجدت مايك في السرير مع إحدى عارضاتها.

كانت قد عادت إلى المنزل بعد الظهر، بعد أن ظهرت عليها أعراض الرشح، فدخلت المنزل ووجدتهما في السرير. لم يلحظا وجودها. حسناً! انسحبت شاني إلى غرفة الغسيل وملأت دلواً بالماء. بالرغم من أن جسدها بأكمله كان يرتعد من فرط الهيجان بسبب أولى أعراض الإنفلونزا الشنيعة، إلا أنها قررت أن الماء وحده ليس كافياً، فأحضرت الثلج على الرغم من أن يديها كانتا ترتعشان بشدة، لدرجة أنها أسقطت صينيتي الثلج. استغرق الأمر خمس دقائق قبل أن يذوب الثلج. صارت مياه الدلو تقارب التجمّد، لكن الأمر حتماً استحق الانتظار. أما رمي الدلو عليهما، فكان حتماً النقطة الأبرز. أما الآن، وبعد النظر إلى الوراء، تظن شاني أن الدموع لربما كانت الخيار الأفضل. على الرغم من كونها عديمة الرحمة باستخدامها دلو المياه المثلجة، فإنها لم تتصرف بسرعة في ما يخص بطاقات الاعتماد المصرفية. حين شفيت من الإنفلونزا، وتخطّت موضوع خيانة مايك، كان الرجل قد ثأر لنفسه بالطريقة الوحيدة التي يجيد التصرف بها رجل نذل خسيس مثله، يفتقر

إلى القيم والأخلاق.

التصرف الذي قام به مايك بدا كافياً ليرميها من فوق حافة الهاوية من الناحية المالية، إذ ما عاد معرضها الفني الصغير المرهون ملكاً لها. لكنها بالرغم من ذلك بقيت مسرورة بشكل ما، لأن مايك لم يرها وهي تبكي. قالت شاني لنفسها، بما أنها تأقلمت مع ما فعله مايك من دون دموع، فهي بالتالي قادرة على التأقلم مع هذا الأمر أيضاً. حدّقت إلى الخارج نحو الأطفال الجالسين على السياج، فيما غاص قلبها إلى أبعد حد. بدا الأطفال محتارين لكونها لا تستدير بسيارتها نحو الداخل. قفزت الطفلة الأكبر سناً عن البوابة استعداداً لفتحها. إنها فتاة في عمر ما قبل سن المراهقة، ذات شعر قصير أحمر كالقصدير، بدا كأنه اقتُطع بجزّازة العشب. فتحت شاني نافذة السيارة قليلاً فقط، ونادت قائلة: «أهذه هي مزرعة الجدولين؟».

صرخ الصبي الأكبر سناً:

- نعم. هل أنتِ شاني؟

أجابت شاني بصوت خافت جداً بالكاد بدا كالصرير:

- نعم.

- وأخيراً!

جرّت الفتاة ذات قصة الشعر السيئة البوابة الحديدية، وفتحتها، فتمايل الأطفال الثلاثة الجالسون عليها، ثم تماسكوا جيداً. تابعت الفتاة قائلة: «أبي يقول إننا لا نستطيع الدخول قبل أن تصلي إلى هنا».

- أيتوقع والدك قدومي؟

- أنت اتصلتِ هاتفياً. أليس كذلك؟

- هممم... نعم!

نظرت الفتاة يمنة ويساراً، بعدئذٍ عبرت الطريق لتقترب من شاني. تابعت حديثها قائلة: «أبي قال: الحمد لله، إن روبي اختارت الورقة الرابحة، إذ صار لدينا مدبرة منزل».

ابتلعت شاني ريقها، ونظرت من جديد إلى الأطفال الجالسين على البوابة

الحديدية، ثم قالت:

- فهمت! أخمّن أن... اسم والدك هو بيرس.

- إنه بيرس ماك لاكلان. أنا أدعى وندي ماك لاكلان. أنا في الحادية عشرة من عمري.

أقحمت الفتاة يدها داخل نافذة السيارة المفتوحة. بدت ذات ذراعين ورجلين طويلتين، أما فمها فممتلئ بآلة تقويم الأسنان. صافحتها شاني بوهن، فيما هزّت الفتاة يدها بحزم، وهي تصافحها.

أخبرتها وندي قائلة: «هؤلاء هم برايس ودونالد وآبي. برايس في التاسعة من عمره، أما دونالد ففي السابعة، وعمر آبي أربع سنوات. هنالك بيسي أيضاً، وهي تبلغ الثمانية أشهر فقط. إنها الآن مع أبي».

- أين هو والدك؟

- اضطر إلى أخذ بيسي إلى الطبيب. نظن أنها مصابة بالجدري. لم تظهر على جسدها أية بقع بعد، لكنها تئن كثيراً، ولا بد أنها مريضة. لم ينم والدي مطلقاً الليلة الماضية. عندما اتصلتِ بنا هاتفياً، كان يبدو على وشك البكاء.

تكلمت شاني بصوت خافت أكثر بعد، إذ قالت: «آه! هل أصبتم جميعكم بالجدري؟».

نظرت إلى حيث كان الأطفال الثلاثة الآخرون يتأرجحون على البوابة المفتوحة. أجابت وندي بابتهاج: «آه... نعم! أنا أصبت أولاً ثم دونالد وآبي وبرايس. أصيبوا جميعاً في آن معاً. قال والدي إنه سوف يلتوي من شدة الإرهاق، لكنني ساعدته».

- أنا واثقة من أنكِ فعلتِ.

- لم نكن نريد أن تلتقط بيسي العدوى، لكنها فعلت ذلك على أي حال. أبي منزعج جداً.

رمشت وندي، واستدركت قائلة: «آه! لا يفترض بي أن أقول ذلك، لكن عندما اتصلتِ وأبلغتنا بقدومك، قال والدي: الحمد لله! أنا مرهق جداً، حتى إنني مستعد لأن أدفع نصف ما أملكه مقابل الحصول على مساعدة

لائقة، ثم نظر إلينا جميعاً، وقال إنه قد يدفع كل ما يملكه».

فكرت شاني أن أي امرأة أخرى قد تستدير على أعقابها، وتعود الآن بالذات من حيث أتت. أقرّت وندي بنبرة متلعثمة: «لا يجدر بنا أن نبقى هنا بمفردنا. لكن إطار الشاحنة العائلية الواسعة مثقوب، وعندما أخرج والدي الإطار الاحتياطي، وجده مثقوباً أيضاً. لا بد أن والدتي تسببت بثقبه، ولم تخبر والدي...».

ابتلعت وندي ريقها، وتابعت: «قبل... قبل أن تموت. على أي حال، سيارة أبي لا تحتوي سوى على مقعدين، وهي لا تتسع لنا جميعاً. كان بحاجة ماسة إلى أخذ بيسي إلى الطبيب، لذا قلت له إننا سنكون على ما يرام. سوف نجلس على البوابة، ولن نتحرك حتى تأتي».

قالت شاني لنفسها من تحت أنفاسها: عمتي روبي العزيزة... هل أصبتِ بالخرف؟ كيف يمكنها أن تتأقلم مع هذا الوضع؟ هي تحتاج إلى التقاط أنفاسها بعد ما حصل معها. إنها بحاجة إلى الوقت كي تصفّي ذهنها، وترسم قليلاً، وتفكر إلى أين تريد أن تذهب من هنا. تصورت أنها ستتجول في أرجاء المزرعة، فتتمعن بالمناظر الطبيعية الجميلة، فيما يرافقها طفل جميل لطيف في عربته، ولعلها تكتسب امتنان الفتى الذي شعرت بالأسف تجاهه في ما مضى...

سُمع زعيق من الناحية الأخرى من الطريق. إذ أرجح الصبيان البوابة بقوة، فسقطت آبي إلى الخلف. صارت الطفلة ذات الأربعة أعوام متدلية من ركبتيها فقط، أما شعرها المربوط في جديلتين قصيرتين على جانبي رأسها فصار يحتك بالتراب. راحت الطفلة تجر يديها على الأرض محاولة التشبث بشيء ما، فيما تأرجحت البوابة بجموح جيئة وذهاباً. صرخت الفتاة: «النجدة! وندي... النجدةةةةة».

شهقت وندي، ثم نظرت يمنة ويساراً ثم إلى اليمين، قبل أن تقطع الطريق من جديد بخطى ثقيلة. سحبت وندي شقيقتها آبي إلى الوراء، وحملتها بين ذراعيها النحيلتين، فصارت تترنح تحت ثقل جسدها. صرخت وندي عبر

الطريق، وهي ما تزال تترنح: «هل ستدخلين؟».

لاقت شاني نظرتها مباشرة. فكرت، إنها نظرة طفلة اضطرت إلى النضوج قبل أوانها. أحست أن قلبها يتمايل بالرغم عنها. قالت لنفسها: هيا! مدي يد المساعدة. كفي عن هذا!

بدت ملامح الترقب على وجه الفتاة، توقفت عن النظر إلى شاني، وقد أخذت قرارها. قالت وندي لأختها الصغرى: «لا يهم ما قاله أبي. أنا سآخذك إلى داخل المنزل».

عانقت وندي أختها الصغرى في مبادرة تدل على الحماية الصافية. أدارت ظهرها لشاني، ثم قالت: «أصبيت أصابعك بخدوش. سوف نجد ضمّادة لاصقة لوقف النزيف».

آه، اللعنة!

نادت شاني قائلة:

- ماذا قلت لي... ما هي أسماؤكم؟.

صاح الصبي الأكبر سناً: «برايس! برايس ووندي ودونالد وآبي. وبيسي هي عند الطبيب».

قالت شاني بضجر: «حسناً، برايس! أين أركن السيارة؟».

* * *

تكلم الطبيب بنبرة تدل على الاهتمام العميق، قائلاً لبيرس: «حتما إنه الجدري. هذا يجعل من العائلة كلها مُصابة. يجب أن يتمتع الأطفال الأكبر سناً بالمناعة، فنحن نقوم باعطاء اللقاحات العادية عند بلوغ الطفل الإثني عشر شهراً. بيسي سوف تدفع ثمن إهمالك القيام بذلك».

فكر بيرس بملل أنه كان ليقذف الطبيب من النافذة لو أنه أقل إرهاقاً، لكن حمل الطبيب وقذفه أمر يتطلب الطاقة والمجهود، وهما أمران غير متوفران لديه الآن. قال له الطبيب بنبرة باردة: «هاك وصفة طبية! مرتان في اليوم، تماماً مثل الأطفال الأكبر سناً. هل يمكنني أن أعتمد عليك لتعطيها الدواء؟».

ردّ بيرس بحدة:

- نعم.

لربما ما زال يمتلك الطاقة اللازمة ليضرب الطبيب، لكن بيسي متعلقة بعنقه ومن الصعب جداً أن يفعل ذلك وهو يحمل طفلة باكية. قال الطبيب: «الضابط المختص في مصلحة رعاية شؤون الأطفال قال إنك تبدو غير قادر على الاعتناء بهم».

حدّق الطبيب ببيرس كما لو أنه ليس واثقاً تماماً، ثم تابع: «يمكنني أن أتصل بهم ليحضروا إذا شئت. قلت لكَ ذلك حين توفيت والدتهم».

- لا أريد هذا، كما أن المساعدة آتية في الطريق.

- ممتاز! آمل أن يكون شخصاً كفوءاً، فقد عانى هؤلاء الأطفال بما فيه الكفاية.

أغلق الطبيب ملف بيسي العلاجي معلناً انتهاء المعاينة، وتابع: «أعلمني إذا ما غيرت رأيك. يمكنني أن أتصل بمصلحة رعاية شؤون الأطفال يوم غد».

* * *

بدا المنزل مقلوباً رأساً على عقب. دخلت شاني إلى المطبخ، وكادت تخرج منه على الفور.

- إنه... إنه فوضوي بعض الشيء.

قالت وندي ذلك، وهي تلحق بشاني إلى الداخل. لم تكن وندي قد أنزلت آبي بعد. بقيت تترنح تحت ثقل جسد أختها، فيما تابعت: «بيسي كانت مريضة فعلاً يوم أمس».

بدا المطبخ بارداً، والمكان رطباً. أقرت وندي وهي تلامس الموقد البارد قائلة: «نفد منا الحطب ليلة أمس، ولم يتوفر الوقت لأبي كي يقطعه. لكنه قال إن ذلك أفضل، لأنه ما كان ليغادر إلى عيادة الطبيب تاركاً النار مشتعلة. نحن تناولنا رقائق الذرة مع عصير الليمون على الإفطار، لذا لم نكن بحاجة إلى الموقد».

قالت شاني: «فهمت!».

وضعت وندي أختها بغير رفق على أحد كراسي المطبخ، وقالت: «سوف أجد ضمادة لاصقة للجروح».

يمكنها إلى الأقل أن تبدأ من هنا. قالت لوندي: «نحن بحاجة لأن ننظف الجرح. هل يمكنك أن تجدي لي منشفة صغيرة نظيفة وبعض الصابون؟».

قالت وندي بحذر: «أظن ذلك. هل ستعتنين بنا؟».

قالت لها شاني: «لا فكرة لدي... بالأحرى ليس على المدى البعيد. لكن الآن يبدو أنني سأعتني بكم، على الأقل حتى يعود والدكم إلى المنزل. دعونا نبدأ بهذا الإصبع المجروح».

* * *

أخيراً غرقت بيسي في النوم، على الطريق ما بين عيادة الطبيب والصيدلية. إنها لم تكف عن البكاء طيلة الليلة الفائتة، كما في غرفة الانتظار لدى الطبيب وداخل عيادته. حين غرقت في النوم كاد الصمت يبدو صاماً للآذان. شعر بيرس أنه محظوظ لأنه وجد مكاناً لركن السيارة أمام الصيدلية تماماً. نعم! لا مجال لأن يوقظها. آه! هذا تصرف آخر يمكن أن يعرضه للملاحقة من قبل مصلحة رعاية شؤون الأطفال؛ لا تترك طفلتك أبداً بمفردها في السيارة! لكن سيارته الرياضية الصغيرة الصفراء اللون ذات سقف مكشوف أمام أشعة الشمس، وهذا نهار ربيعي رائع. سيتمكن من مراقبة بيسي عبر نافذة الصيدلية، فيما يسرع إلى الداخل ليشتري الدواء المدون في وصفة الطبيب.

وجد هنالك عشر وصفات طبية قبله.

قال له الصيدلي: «سيتطلب الأمر عشرين دقيقة».

- لدي أطفال في المنزل، والطفلة في السيارة. هل يمكنك الإسراع...؟

- عشرون دقيقة.

- حسناً!

تنهد بيرس باستسلام. إنه لا يستطيع أن يضرب كل شخص في هذه

البلدة، حتى لو بدأ يشعر كما لو أن الجميع يتآمرون ضده. قال: «سوف أجلس في السيارة، وأنتظر».

حاول أن يمشي مرفوع الرأس إلى الخارج، لكن قدميه بدتا مرهقتين جداً ليفعل ذلك. لم يحلق ذقنه منذ يومين، وكان قد نام في ملابسه هذه. إنه يبدو مريعاً كالموت. انسل بيرس إلى المقعد الخاص به في سيارته الصغيرة الباردة. بجانبه كانت بيسي ما تزال تغط في نوم عميق.

- عشرون دقيقة، بيسي.

قال بيرس لها ذلك، لكن الطفلة لم تتحرك. تفهّمها بيرس، وتنهد، ثم أغمض عينيه. الشمس الربيعية الدافئة بدت كالبلسم، وكذلك الهدوء المسيطر على المكان. يمكنه أن يلقي ذراعيه بكل بساطة على المقود، ويدع رأسه يستريح... بدا الجو دافئاً جداً...

* * *

- كم من الوقت سيتأخر والدك؟

- قال إنه سيعود بعد ساعة. الموعد لدى الطبيب حُدد في الساعة العاشرة والنصف.

قالت شاني بحذر: «الساعة الآن تجاوزت الحادية عشرة. ألا يجدر به أن يعود الآن؟».

- نعم.

قالت وندي ذلك، وارتعشت شفتها السفلى قليلاً. قالت شاني لنفسها إنها سوف تبقى هنا فقط إلى أن يعود بيرس إلى المنزل. بعدئذٍ سوف ترحل. بدا الأطفال أكثر قلقاً منها. لا يمكنها أن تتركهم، كما أنها لا تستطيع أن تبقى هنا في هذه الفوضى المنفرة غير عارفة بمكان وجود بيرس. راح الأطفال يحدقون بها. فقد هؤلاء المساكين والدتهم، والآن بيرس تأخر. إن عالمهم ليس مستقراً كما يجبونه أن يكون. قالت شاني: «حسناً! سوف أتصل هاتفياً بعيادة الطبيب. هل أفعل؟».

قالت وندي فيما ظهر عليها الارتياح: «نعم».

نعم، كان بيرس في عيادة الطبيب. أخبرتها موظفة الاستقبال: «إنه مضطر لأن يمر بالصيدلية كي يشتري لها الدواء قبل عودته إلى المنزل. لعله استغل الفرصة ليتسوق. هل ترك أطفاله المساكين بمفردهم؟».

حملت نبرة صوت موظفة الاستقبال ما يكفي من النقد واللوم، ما جعل شاني تتراجع:

- كلا. إنهم معي.

- إذا كانت هنالك أي مشكلة...

- لا! ليست هناك أي مشكلة.

- إن مصلحة رعاية شؤون الأطفال ليست مسرورة جداً من أسلوب تأقلمه مع الوضع.

جاء صوت موظفة الاستقبال صادحاً بما يكفي لتسمعه وندي الواقفة إلى جانب شاني. قالت وندي وقد احمرّ لون وجهها: «أخبريها أننا نتأقلم بصورة جيدة. نحن بخير».

- نحن بخير.

قالت شاني ذلك، ووضعت سماعة الهاتف. قالت لها وندي: «إنهم يريدون أن يأخذونا بعيداً عن والدنا».

لعل هؤلاء... أياً كانوا لديهم أسبابهم. لكن ما زال الخوف مرتسماً على الوجوه الأربعة الصغيرة.

- إذا كنتم قلقين بخصوص مصلحة رعاية شؤون الأطفال، فنحن بحاجة لأن نظهر لهم أننا نتأقلم.

سألت وندي:

- وكيف نفعل ذلك؟

حدّقت شاني نحو كومة الأطباق الوسخة، وقالت: «الأمور الأهم تأتي في المرتبة الأولى. نحن بحاجة إلى خطة أساسية. سوف أقطع ما يكفي من الحطب كي أشعل النار وأحصل على الماء الساخن... دعونا نملأ حوض الاستحمام، فالمغسلة لن تكفي. احملوا كل ما هو وسخ إلى الحمام باستثناء

السكاكين. دعوا السكاكين لي. الصبيان يغسلون الصحون والفتيات يجففنها. أريد أن أرى الحمام بأكمله مليئاً بالأطباق النظيفة إلى درجة اللمعان. أنا سأنظف المكان هنا، ثم سنحمل الأغراض النظيفة إلى هنا».

قال دونالد: «لا نستطيع. نحن لسنا ناضجين بما فيه الكفاية حتى نغسل الأطباق. فقط وندي...».

تكلمت شاني بحدة تفوق ما تشعر به فعلاً، قائلة لهم: «هذا كلام تافه. غسل الأطباق في حوض الاستحمام أمر ممتع. هل لديكم جهاز لتشغيل الموسيقى؟».

قالت وندي: «بيـ... أبي لديه واحداً».

قالت شاني: «حسناً! إذاً دعونا نضع قرصاً مضغوطاً مناسباً للعمل. شيء مثل آبا. هل تعرفون أغنية «الملكة الراقصة؟».

أشرقت عينا آبي وهي تقول: «نعم. أمنا أحبت آبا، لهذا السبب أطلقت علي اسم آبي».

- إذاً سوف نستمع إلى آبا.

قالت وندي:

- لست أدري إذا ما كان والدي يمتلك أقراصاً لآبا.

- دعونا نبحث إذاً. هلا فعلنا؟

* * *

عند حلول الساعة الرابعة بعد الظهر، انسلّت الشمس خلف برج مكتب بريد كرغي برون الذي تعلوه ساعة ضخمة، ففقد بيرس وبيسي أشعة الشمس التي تدفئهما. استيقظت بيسي أولاً. تلوت في مقعدها المخصص للسيارة. مدت يدها السمينة نحو بيرس، وجذبت شعره المشعث الذي يبدو في حالة فوضى. استيقظ بيرس وكأن أحدهم أطلق النار عليه. قالت بيسي برضى عميق: «ممم... بم... فه...».

قال بيرس، وهو يحاول منع الدموع من الوصول إلى عينيه: «بيسي! إنك لا تعرفين مدى قوتك».

فرك رأسه، ثم تحرك، وتمطى. حدّق بنعاس نحو البرج الذي تعلوه الساعة، وتجمّد العالم في مكانه. . . حتماً هو لم يفعل ذلك! آه، يا إلهي! بل فعل. غفا لما يزيد عن الخمس ساعات، حتى قاربت الساعة السادسة. مد يده ليشغل السيارة، وأنامله تتحسس المفتاح بتسرع. لاحظته المرأة في الصيدلية من خلال النافذة وهو يتراجع من الموقف، فلوحت له بهلع كي يتوقف.

جاءت المرأة إلى الباب، ونادته قائلة: «حضرت لك الوصفة الطبية. تساءلنا متى ستستيقظ. يجدر بك أن تكون أكثر حذراً. السيد كونيلي الصيدلي يخشى أن تكون أشعة الشمس قد أحرقت بشرة الطفلة».

* * *

ليس سيئاً على الإطلاق!

تراجعت شاني إلى الوراء وهي تتأمل الرسم التخطيطي الذي أنجزته للتو مستخدمة قلم الرصاص. هذا الرسم يبدو شبيهاً بالبقرة، مع أن قوائمها تبدو مضحكة. تفقدت صفّ الأطفال الذي ترعاه. أربعة أولاد، أربعة ألواح مع الألوان، أربع ريش مخصصة للرسم، وأربعة مساند متحركة للصور. إنهم يبدون في تركيز تام. هذا أمر جيد! إنها الساعة الرابعة. كم ستنتظر بعد، قبل أن تتصل هاتفياً بأحدهم؟ نظرت شاني نحو وندي التي تعمل باستغراق يكاد يكون يائساً. أما دونالد، برايس وآبي فكانوا صامتين أيضاً.

اللعنة عليه! ما هي اللعبة التي يمارسها؟ يجدر بها أن تتصل بأحدهم.

نظرت وندي نحوها بعينيها المتوسلتين. ليس بعد!

* * *

راح بيرس يجاهد كي لا يتجاوز السرعة القصوى المسموح بها، فيما أسرع برفقة بيسي بالعودة إلى المنزل. بدت بيسي مرتاحة ومبتهجة، إذ أخذت تصيح بسرور بسبب المفعول المهدئ الذي تركته الرياح على بشرتها الواخزة الشاعرة بالحكاك. لعل بيرس استرخى، لكنه لم يكن يشعر بالارتياح. اعتقد أنه سيترك أطفاله لمدة ساعة، آملاً أن تكون المرأة. . . ما اسمها؟ شانون. . .

لا، بل شاني. . . قد وصلت.

حتى لو وصلت، فلربما غادرت منذ وقت طويل. لاشك أن الأطفال مصابون بالرعب. استدار بيرس بالسيارة حول المنعطف الأخير، فوجد سيارة للشرطة في باحة المنزل الخارجية.

لابد أنه الصيدلي، فكر بيرس بذلك، وهو يتذكر النظرة المرتسمة على وجه الرجل وهو يناوله الدواء الخاص ببيسي. البلدة بأسرها تعتقد أن الأطفال سيكونون بحال أفضل في عهدة مصلحة رعاية شؤون الأطفال. قال وهو يرفع بيسي من السيارة: «ارتكبت خطأ فادحاً. أنا لا أستحق أن أحصل عليكم».

ظهر رجل الشرطة من خلف الحظيرة، ترافقه امرأة ذات شعر أحمر، صغيرة البنية، نحيلة، ترتدي جينزاً باهت اللون وسترة واقية من الرياح من اللون الأحمر المشرق، وهي ملطخة بالدهان الأخضر. فيما وضعت على رأسها عصبة صفراء لترد إلى الوراء خصلات شعرها الأحمر اللاهب. تحركت الذكريات في داخله. . . تذكر أحد الأعراس العائلية التي اصطحبته إليها روبي. . . بدا كأنه يعيش كابوساً لكونه وحيداً. سمع أحد الأطفال في مثل عمره يقول ساخراً: «إنه أحد مشردي العمة روبي. إنه لقيط. . . لقيط. . . ».

بعدئذٍ وصلت فتاة صغيرة، ترتدي فستاناً قرمزياً، وتضع عقدة زهرية ضخمة في شعرها اللاهب. اتجهت الفتاة نحو نسيبها الكبير، وداست بقوة على قدمه. داست بقوة لدرجة جعلت الولد يزعق ألماً.

- يا إلهي! أنا آسفة، ماك.

قالت شاني ذلك، فيما لم تبدُ آسفة البتة، ثم استدارت نحو بيرس قائلة: «مرحباً! اسمي شاني. ما اسمك؟».

تذكر بيرس تلك اللقطة الصغيرة من الشجاعة واللطافة التي لطالما أضحكته حين يكون بحاجة إلى ذلك. أيعقل أن تكون هذه المرأة هي نفسها؟ ابتسمت شاني، ولوحت له كما لو أنه نسيبها القديم، وهي تقول: «بيرس،

عزيزي! نحن هنا. كيف حال حبيبتنا بيسي؟ هل أحضرت الأغراض التي أحتاجها من المتجر؟».

- آه... مرحباً!

قال بيرس ذلك بوهن، وفجأة صارت تلك الذكرى القديمة واضحة كالبلور، حين داست على قدم ذاك الصبي. من المدهش أن رجلي الشرطة كانا يبتسمان. جاء الرجلان إلى هنا منذ أسبوعين برفقة موظفي مصلحة رعاية شؤون الأطفال. يومها غادرا المكان متجهمين، لكنهما لا يبدوان متجهمين الآن. الرجل الأصغر سناً كان يبتسم بشكل يجعله يبدو سخيفاً، أما الرجل الأكبر سناً فينظر إليها باستمتاع لطيف. قال الشرطي الأصغر سناً لشاني: «إذاً، مساء الجمعة...».

قاطعته شاني: «أنا بحاجة إلى تنظيم جدول المناوبة مع نسيبي، لا نستطيع أن نترك الأطفال بمفردهم».

قال الشرطي الشاب وهو يلوح بقصاصة ورق: «شكراً لإعطائي رقم هاتفك. لن أفقده».

لوحا لبيرس بسلام ومودة. ثم صعدا إلى سيارة الشرطة، ورحلا تاركين بيرس برفقة شاني.

٢ - أريد الحقيقة!

قال بيرس: «آه! أنت شاني».

ردت شاني وهي تقوس حاجبيها: «أتظن ذلك؟».

ما إن غادرت سيارة الشرطة، حتى توقفت عن السير نحو بيرس. لم تقترب بعد ذلك خطوة واحدة. تابعت تقول: «ربما ترغب في التحقق من ذلك. من المهم أن تتأكد من هوية من تترك أطفالك بعهدته».

- اسمعي! أنا...

وضعت شاني بحذر جانباً ابتسامتها العريضة وسحرها، وقالت: «ما اللعبة التي تمارسها بحق الجحيم؟ أي نوع من الآباء أنت؟ أين كنت بحق الجحيم؟».

ركز بيرس على الشيء الصغير الوحيد الذي يمكنه أن يتحكم به، فقال: «هل تمانعين أن تراقبي ألفاظك؟ أنا أعلم أطفالي التحدث بلباقة وعدم إطلاق الشتائم».

استنشقت شاني نفساً عميقاً، وقالت: «هل تمزح؟ أطفالك الذين يتضورون جوعاً يتم تعليمهم ألاّ يشتموا!».

- إنهم لا يتضورون جوعاً.

- ما هو الطعام الذي تركته لهم على الغداء؟

أجبر بيرس ذهنه المشوش على التفكير: «لست أدري. هناك البيض، اللحم، النقانق، البطاطا المجلدة...».

ردت شاني بدهاء: «وهذه الأشياء كلها تحتاج إلى الموقد».

راحت تنظر إلى بيرس بقرف كما لو أنه دودة ما خرجت من قالب

الجبنة.

- اسمعي! لقد غفوت.

رفعت شاني أحد حاجبيها، وقالت: «أحقاً؟ حصلت على قيلولة صغيرة، لذا تضور أطفالك من الجوع».

- الأطفال لا يتضورون جوعاً بسبب غداء وحيد يفوتونه.

حملقت به شاني.

- أبي!

نادته وندي بصوتها الضعيف، لكنها بقيت واقفة خلف شاني، ولم تقترب من بيرس، كما لو أنها تستخدم شاني كدرع لها. ازداد الثقل الذي أحس به بيرس حول قلبه. لقد خذل وندي. هذه الطفلة الضعيفة التي تحمل العالم فوق كتفيها. كان قد بدأ يكسب ثقتها... قليلاً...

- اللعنة، وندي...!

قالت شاني بصوت بارد كالثلج: «لا تلعن أمام الأطفال!».

قال بيرس يائساً: «اسمعي! لقد غفوت. لم أنم مطلقاً ليلة أمس. وندي، أخبريها أنني لم أنم. كان علي أن آخذ بيسي إلى الطبيب، ثم اضطررت أن أنتظر حتى يحضروا لي الوصفة الطبية. جلست في السيارة وانتظرت، إذ من غير المسموح أن نترك الأطفال بمفردهم في السيارة، و... غفوت بكل بساطة».

فتح بيرس ذراعيه. فكّر أنه قد لا يتمكن من إقناع شاني، لكن ما يهمه هو إقناع وندي. سادت برهة صمت مطولة، فيما فكرت وندي بالموضوع، أما شاني فبقيت صامتة. أخيراً تكلمت وندي قائلة: «إنه فعلاً لم ينم ليلة أمس. لم ينم ليلة ما قبل الأمس أيضاً، فقد رأيت كابوساً، واستيقظت، فأعدّ لي الكاكاو الساخن».

ذاب جليد شاني قليلاً، فقالت: «أتقولين إن لديه عذراً؟».

قالت وندي: «إنه يبدو مريعاً».

وافقت شاني قائلة: «إنه كذلك. متى حلق ذقنه آخر مرة؟».

ردت وندي: «إنه يبدو على ما يرام عندما يحلق ذقنه. أما الآن فذقنه شائك جداً».

مشت وندي إلى الأمام، فانتزعت بيسي من بين ذراعي بيرس، ثم تراجعت إلى خلف شاني مجدداً. لا بد أن الفتاة تشعر بالرعب.

- أنا آسف فعلاً.

قال بيرس ذلك، فيما استمرت شاني بحملقتها. قالت وندي: «ظننتك هربت».

- لن أفعل ذلك. أخبرتك أنني لن أفعل ذلك.

- الرجال يكذبون. أمي قالت ذلك. الرجال دوماً يكذبون.

سادت فترة صمت مطولة أخرى، بدت أسوأ من التي سبقتها. حاول بيرس أن يفكر بشيء ليقوله. لكنه لم يجد شيئاً. امتدت فترة الصمت... راحت الفتيات الثلاث ينظرن إليه كما لو أنه دودة حقيرة. وندي، شاني... وحتى بيسي. قالت شاني بداعي مراعاة مشاعر بيرس: «أتعلمين؟ والدي لا يكذب. إنه يرتكب الأخطاء، لكنه لا يكذب. تركني مرة على حلبة التزلج لساعات لأنه يقرأ كتاباً جيداً. هل أنت جائع؟».

الطعام هو آخر شيء يفكر به. مع هذا، لو فكّر بالموضوع...

- أظنني جائع قليلاً.

قالت وندي: «هنالك نقانق باردة. طهونا الكثير للغداء لأننا اعتقدنا أنك ستعود إلى المنزل. كما أعدّت شاني الكعك المحشو بفتات الشوكولا».

- شاني أعدّت... الكعك المحشو بفتات الشوكولا؟

توقف بيرس عن النظر إلى وندي. لقد خذلهم، وبشكل ما عليه أن يجد طريقة لاستعادة ثقتهم. ليس هنالك ما يمكنه أن يفعله بخصوص ذلك الآن بالذات، لكن بشكل ما يبدو أن قصة شاني عن حلبة التزلج خففت التوتر، أما النقانق... والكعك المحشو بفتات الشوكولا... قالت شاني بتواضع: «إنها من اختصاصي. لم يتوفر لديك فتات الشوكولا، لذا اضطررنا أن نسحق لوحاً».

- النار ليست موقدة.

قالت وندي: «لقد أوقدناها. كان علينا أن نشعلها حتى نحصل على الماء الساخن لنغسل الأطباق».

- أنت أشعلتِ النار؟ لكن الحطب...

- شاني قطعته، والصبيان كدّسوه. صار صندوق الحطب ممتلئاً.

قالت شاني: «يمكنك مناداتي باسم المرأة الخارقة».

- روبي قالت إنك فنانة.

- روبي قالت إن لديك طفلة واحدة، وحين اتصلت بك، قلت لي إن لديك طفلة واحدة.

قال بيرس بوهن: «أنا لم أقل طفلة واحدة. لكن... نعم، روبي كانت لتقول لك طفلة واحدة. لأكون صادقاً، حين اتصلتِ فكرتُ أنني سأدعك تأتين إلى هنا بأية وسيلة ممكنة، وحالما تصلين سأرشوك كي تبقي».

كانت بيسي متكئة على كتف وندي، وهي تبدو راضية بعد رحلة السيارة. لكنها الآن بدأت بالصراخ. سأل بيرس بصوت أعلى من صرخات بيسي: «هل تستطيعين البقاء، على الأقل حتى نطعم بيسي؟».

قالت شاني بشراسة: «أنا باقية حتى أحصل على بعض التفسيرات».

منذ أول صرخة أطلقتها بيسي، لم يعد هنالك متسع من الوقت لتقديم التفسيرات. بيسي بحاجة إلى الطعام، الاستحمام، التهدئة، أما بقية الأطفال فهم بحاجة إلى الاستحمام وإلى تناول العشاء. الأبقار بحاجة أيضاً إلى الطعام. حسناً! بيرس قام بهذه المهمة الأخيرة بمفرده، أما شاني فبقيت في المطبخ، وأشرفت على عشاء الأطفال، فيما راقبت بيرس عبر النافذة. رأت بقرة ضخمة في المرج الأقرب إلى المنزل. بدت البقرة... آه! لطيفة. حسبما قررت شاني، فيما داعبها بيرس خلف أذنها. راح ذاك المخلوق الضخم يخرخر. أحنى جسده الضخم باتجاه بيرس. إنه حقاً لطيف.

بدا بيرس لطيفاً أيضاً. إنه طويل ورشيق، ويتمتع بملامح حادة. أما شعره البني الغامق الأجعد فبدا مشعثاً وطويلاً جداً. بدا من الواضح أنه لم

يحلق ذقنه منذ بضعة أيام، لذا ارتسمت الظلال تحت عينيه. كما يظهر من سروال الجينز والسترة اللذين يرتديهما أنه ينام بتلك الملابس. إنه يبدو... هزيلاً إلى حد ما. تذكرت شاني ذلك الانطباع الذي ارتسم لديها حين كان بيرس في الخامسة عشرة من عمره، بدا يومها شديد الجاذبية، والآن، لم يتغير. إلاّ أن وجود الأولاد الخمسة ليس جذاباً. إنها فعلاً تشعر بالأسف عليه، لأنه عالق مع خمسة أولاد... حسناً! هذا خياره، لكن...

- ما الذي تفكرين به؟

سألتها وندي بحياء، فيما كان بقية الأولاد يغرزون شوكاتهم في طبق عجّة البيض.

- أفكر أنكم هزيلون قليلاً. ماذا كنتم تأكلون؟

- بي... أبي ليس طاهياً ماهراً. آخر مرة طلبنا أن يوصلوا لنا البيتزا، نسي أبي أنه لا يمتلك أية أموال نقدية، والرجل المكلف بتوصيل البيتزا رفض أن يأخذ شيكاً أو بطاقة اعتماد مصرفية، والآن هو يرفض أن يعود إلى منزلنا لإيصال الطلبيات.

- أنا أستطيع إعداد البيتزا.

- أنت تمزحين! هل تجيدين إعداد البيتزا؟

كان هذا صوت بيرس الواقف في مدخل الباب، وهو يراقب بذهول الألفة العائلية الظاهرة أمامه.

سألت آبي: «هلا أعددت لنا واحدة؟».

- ربما غداً... إذا حصلت على المكونات اللازمة.

- سوف تبقين إذاً؟

حسناً! أين ستجد مكاناً آخر لتنام فيه الليلة؟ قالت: «قل لي إنكم تمتلكون سريراً إضافياً».

قال بيرس: «لدينا غرفة نوم احتياطية».

قال دونالد وهو يحدق بها بتلك النظرة الثابتة: «إنها غرفة أمي!».

علّقت آبي: «أبي ينام في الطابق العلوي، في غرفة بيسي».

أوضح برايس:

- إنها تستيقظ عدة مرات خلال الليل.

تدخل بيرس قائلاً: «حان وقت النوم، أيها الأولاد».

استغرق بيرس حوالى الساعة من الوقت كي يقرأ لهم قصصهم. أخيراً حين نزل إلى الطابق السفلي، كانت شاني جالسة على أرض المطبخ وهي محاطة بالأغراض. كلما أمعن بيرس النظر إلى شاني كلما تذكر تلك الفتاة البالغة من العمر عشر سنوات، تلك التي جعلته يبتسم يومها. إنها ما زالت تمتلك هذه القدرة، بمجرد جلوسها في وسط أرض مطبخه. تمكن من القول: «ما الذي تفعلينه؟».

- هذا ليس براداً، إنه نظام للتخمير.

تجنبت شاني النظر إلى بيرس. عوضاً عن ذلك رفعت مرطباناً نما في داخله العفن، وقالت: «ألم يخترع فليمنغ البنيسلين بهذه الطريقة؟ هل تبحث عن براءة اختراع لدواء يعالج الجدري؟».

- دعيه!

- ناولني كيساً للقمامة. هذا المرطبان قد يستولي على العالم إذا تركته ينمو.

وجد بيرس كيساً للقمامة، فناولها إياه. وضعت شاني أشياء كثيرة داخل الكيس، إلى درجة جعلت بيرس يبدو مصدوماً. قال مدافعاً عن نفسه: «أنا عادة مرتب ونظيف».

أومأت شاني: «أتذكر أنك كنت... مرتباً وأنت في الخامسة عشرة من عمرك».

حدق بيرس إليها، وقال:

- أعتقد أنني كنت أرتدي بذلة رسمية.

- بذلة زرقاء ذات خطوط رفيعة، حسبما أذكر.

- لكن بقية الشبان اعتقدوا أنها...

- مضحكة. نعم، أتذكر أنهم حاولوا إغاظتك.

حدق بيرس نزولاً، وهو يحاول فهم الأمور. أين كانت تختبئ هذه المرأة؟ لم يستطع أن يتذكر. روبي تحدثت عنها بقولها: «شاني قد تحب تقديم المساعدة».

جل ما استطاع أن يتذكره تلك العقدة البالغة الضخامة التي وضعتها على شعرها، وقدمها التي داست بها على قدم الصبي الآخر، إضافة إلى الابتسامة... أكثر ما يتذكره هو الابتسامة. قال بيرس باعتذار: «أنا لا أستطيع أن أتذكر الرابط».

- أنا ابنة لوسي وويل. إنهما أكاديميان. وهما حالياً في سويسرا. أبي هو شقيق روبي الأصغر.

- أنا لا أتذكر لوسي وويل، لكنني أتذكركِ أنتِ.

- يا إلهي! شكراً.

- يومها دُستِ على قدم ماك.

ابتسمت شاني ابتسامة عريضة لدى تذكرها ذلك، وقالت: «لقد فعلتها، أليس كذلك؟ كبر ماك وصار تاجراً للسيارات المستعملة. روبي تقول إنه تزوج بامرأة مزعجة فعلاً. ماك الطيب الكبير».

- لماذا جئتِ إلى هنا؟

- العمة روبي طلبت مني ذلك.

رفعت شاني شيئاً أخضر إلى الأعلى، وقالت: «أهذا خيار؟ ألا تظن أنه تخطى تاريخ صلاحية استخدامه؟».

- أنا... نعم.

- لم تخبرني روبي أن لديك خمسة أولاد.

- روبي لا تعلم.

- ألم تخبرها؟

- قلما أقابل روبي، وما من داع لأطلعها على كل شيء.

- لذا أغفلت شيئاً صغيراً ما، كوجود خمسة أولاد. هنا شيء ما متعفن... لست أعلم ما هو.

شنّت شاني غارة على البراد، وخرجت منتصرة الآن. قالت: «هذا جاف تماماً».

مرّر بيرس أنامله من خلال شعره، وقال: «هل يمكننا أن نتوقف عن هذا الاستجواب؟ و... هلاّ نهضتِ عن أرضية مطبخي؟ فأنا بالكاد أعرفك».

- أنت تعرفني بما يكفي حتى تأتمنني على أولادك.

- لم يكن بيدي خيار آخر. كان لدي موعد مع الطبيب. بعد أن وضعت الأطفال داخل السيارة أدركت أن الإطار مثقوب، وكذلك الإطار الاحتياطي. أنتِ كنتِ قادمة، وروبي قالت لي إنك أهل للثقة، لذا وثقت بك.

قالت شاني وهي تشير إلى القمامة: «خذ هذا الكيس إلى الخارج. إنه مقرف».

فعل بيرس ذلك، ما أفسح له المجال حتى يأخذ بضعة أنفاس عميقة. حدّق إلى الأعلى نحو السماء في الليل، وعدّ إلى العشرة، ثم قرر أن يعد حتى المئة. أخيراً فكر أن من الأجدر به أن يعود. كانت شاني ما تزال تنظف البراد. جل ما استطاع أن يراه منها هو سروال الجينز، وهي تخرج من براده.

استغرق بضع لحظات وهو يبدي إعجابه بالمشهد. اللعنة! إنه يفتقد إلى النساء. مضى اثنا عشر شهراً، وكم بقي بعد؟ ربما سنوات... ما الذي أوقع نفسه فيه؟

- أترغبين بكوب من العصير؟

في هذا الوقت كانت شاني تتراجع من البراد. استقامت في جلوسها، ومسحت رقاقة من الخس بعيداً عن أنفها، ثم قالت: «في الواقع، كنت على وشك أن أقول إن كوباً من العصير يبدو جيداً الآن».

ابتسمت فيما حدّق بها بيرس. إنها ألطف ابتسامة رآها.... ابتسامة بيضاء مبهجة، وقد تراقصت عيناها الخضراوان خلفها. هاي! كف عن هذا. هذا ليس ملائماً. اللعنة! يبدو أنه فقد الاحساس المنطقي بما هو ملائم

أم لا. مرّر بيرس أنامله من خلال شعره مجدداً... نعم، إنه ينوي قص شعره لكنه لا يجد الوقت ليفعل ذلك. أدرك أنه يحدق بها، ويفكر بشأن قص شعره، في حين يجدر به أن يسكب العصير. استدار على عقبيه، وتوجه إلى الخزانة، فملأ كوبين ثم عاد متجهاً نحوها. كانت شاني ما تزال على الأرض.

- أتريدين الجلوس إلى الطاولة؟

- لو وقفت الآن قد لا أنزل على الأرض مجدداً.

- البراد يمكنه أن ينتظر. قمت بالكثير من التنظيف، لدرجة أنني أشعر...

تردد بيرس، وفكر أنه لا يعرف ماهية شعوره. أهو فقدان السيطرة؟ نعم. ربما هو أكثر فقداناً للسيطرة مما كان عليه حين كان المنزل مملوءاً بالأطباق القذرة.

- لا بد أنك تفتقد إلى زوجتك!

مد بيرس يده نزولاً كي يساعد شاني على النهوض، لكنه ما لبث أن تجمّد مكانه. حدقت شاني بيده، ثم هزّت كتفيها ونهضت عن الأرض. هزّ بيرس رأسه: «آسف!».

- هاي! لا تعتذر. خسرت صديقي الحميم للتو، وأنا أقوم بتصرفات خرقاء، مثل عدم الاتصال بوالديّ كي أتأكد من أنهما لم يغيرا أقفال المنزل قبل قدومي كل هذه المسافة إلى أستراليا.

- هل غيّرا الأقفال؟

قالت شاني بعبوس: «أجرا منزلهما. ألا تظن أن على الإبنة أن تعرف بذلك؟».

- ألست مقرّبة منهما؟

قالت شاني وهي تجلس إلى الطاولة، فيما أخذت أول رشفة من العصير: «ظننت أننا مقربون من بعضنا، فأنا أتصل بهما هاتفياً مرة في الأسبوع. ألا تظن أنه كان يجدر بهما إخباري بشأن تغيير الأقفال؟».

- أنا... أنا أفترض ذلك.

أخذت شاني رشفة أخرى، وقالت: «آسفة! كنا نتكلم عنك أنت... عن زوجتك».

- أفقدت صديقك الحميم؟

حدّقت شاني به، وقالت: «فاجأته وهو يقيم علاقة حميمة مع إحدى العارضات في سريري، فرميت المياه المثلجة عليهما. بعدئذٍ صرف بطاقتنا المصرفية المشتركة حتى آخر قرش، من دون أن يرف له جفن. لكننا نتكلم عنك أنت والأولاد والزوجة المتوفاة ومصلحة رعاية شؤون الأطفال. لم أرَ فوضى كهذه أبداً».

- شكراً لك.

رمشت شاني، ثم وضعت كوب العصير بحذر شديد على الطاولة. قالت لبيرس: «أنا آسفة! كان نهاري طويلاً. وصلت إلى سيدني عند الساعة الخامسة صباحاً، ثم أخذت سيارة أجرة إلى منزل والديّ، فاكتشفت أنهما رحلا. قُدت سيارة أبي، وذهبت إلى شقة صديقتي، فوجدت أنها تسكن في شقة أصغر من صناديق الأحذية. بعدئذٍ تذكرت رسالة روبي، واتصلت بك هاتفياً، فسألتك إذا كنت ما تزال بحاجة إلى مدبرة منزل، فقلت لي نعم، ولا بأس إذا ما جئت مباشرة. وصلت إلى هنا، فوجدتك قد رحلت أيضاً».

رد بيرس وهو يشعر بالدوار: «أنا لم... أرحل».

- كان الأولاد خائفين، فهم يخشون أن يتم نقلهم إلى مأوى للأطفال. أتساءل لماذا تبدي مصلحة رعاية شؤون الأطفال اهتماماً كبيراً بك؟ هل قمت بعمل شنيع؟ أعرف أن وفاة زوجتك كانت أمراً صعباً، لكن السلطات عادة لا تأخذ الأطفال من والديهم إلاّ في الأحوال المريعة فعلاً. لا يمكنني أن أتخيلهم يجرجرون الأولاد نحو دور رعاية الأيتام، فقط لأن أباهم غطّ في النوم في الشمس بعد أن أمضى ليلة مؤرقة مع طفلة مريضة.

- لا... أنا...

- إذاً، هل فعلت أمراً مريعاً؟ أعني، إنك لن تعترف. لكنني فكرت وأنا أنظف البراد أنه يجدر بي أن أرحل، لولا أنني مفلسة وليس لدي مكان آخر

أقصده باستثناء منزل العمة روبي.

- ألا تريدين الذهاب إلى منزل العمة روبي؟

إنه يواجه صعوبة في مجاراتها وفهمها.

- روبي تقيم دورة لتعليم التطريز. عرضت علي أن تعلمني.

ترددت شاني قليلاً، ثم تابعت: «أنا لا أكف عن التفكير بوندي. حين وصلت كانت وندي مرتعبة... تتوقع الأسوأ. لا بد أن هنالك شيئاً مروعاً بالنسبة إليها كي تبدو كذلك. ربما يجدر بي أن أغادر، لكنني قررت أن أفهم الأمر، لأنني الآن عالقة. إذا كنت تسبب الأذى لهؤلاء الأطفال، فسوف...».

- ما الذي ستفعلينه؟

أقرت شاني: «لست أدري. لا أستطيع أن أفهم سبب خوفهم، لأن أسلوب معانقتك ليسي... تبدو لطيفاً».

- شكراً لك.

- أنت تعرف ما أعنيه. إنك تبدو طبيعياً.

- أنتِ تظنينني فعلاً عديم المسؤولية.

- هاي! أنا فقط تساءلت. أعني، لو كان لدي خمسة أولاد وزوجة ميتة، فقد أفقد صوابي أيضاً. وهذا قد يُفسّر الأمر.

- هذا لا يفسر شيئاً.

قالت شاني لبيرس: «إذاً أنتَ بحاجة لأن تعطيني تفسيراً آخر. لأنني أريد أن أعرف لماذا يشعر أطفالك بالرعب».

حدقت عينا بيرس بعينيها. إنها جدية تماماً. إنها قلقة بشأن هؤلاء الأطفال. بدا هذا الإحساس جديداً عليه لدرجة أنه رمش بعينيه. قال وهو يلاقي نظراتها مباشرة: «هنالك تفسير».

- وما هو؟

- هؤلاء ليسوا أطفالي. لم تكن لي أي علاقة بهم قبل اثني عشر شهراً، ولم أكن قد رأيت أياً منهم في حياتي من قبل.

٣ - من ينقذ الآخر؟

ساد صمت مطوّل. كانت شاني قد فتحت باب فرن الموقد، فانتشرت الحماوة في أجواء المطبخ، فيما قرقعت النيران خلفهما.

- هم ليسوا... أولادك!

أخيراً قالت شاني ذلك، من دون أن تزيح عينيها عنه.

قال بيرس:

- لا.

لم يكن هنالك شيء إضافي ليقوله. علقت شاني بنعومة: «تساءلت عن ذلك فعلاً، فهم لا يشبهونك. إنهم ينسون مناداتك باسم «بابا». كما أنهم لم يعرفوا إذا كنت تمتلك قرصاً مضغوطاً لأغاني «آبا».

- آبا؟

- لا عليك. ظننت أنهم كانوا ينادونك باسم بيرس، وأنت أجبرتهم على تغيير ذلك لأجل مصلحة رعاية شؤون الأطفال.

- بالفعل، جعلتهم يغيرون ذلك لأجل مصلحة رعاية شؤون الأطفال.

- لكن...

نهض بيرس، ثم قال: «سوف أعد القهوة».

أومأت له شاني موافقة: «من الأفضل أن تخبرني كل شيء».

انشغل بيرس بإحضار الفناجين والإبريق والقهوة الفورية. بعدئذٍ قال: «لقد تزوجت أمهم».

فكرت شاني بالأمر، وقالت: «إذاً بيسي هي ابنتك؟».

- لا! لا أحد منهم هو ابني أو ابنتي.

- متى تزوجت بوالدتهم؟

- منذ سبعة أشهر. بعد ولادة بيسي مباشرة، وقبل وفاة مورين بثلاثة أسابيع.

ردت شاني بصوت خافت: «آه! فهمت».

بدا بيرس غاضباً. كان يدير لها ظهره، لكنها استطاعت أن تشعر بالتوتر والغضب ينضحان منه.

حمل أكواب القهوة نحو الطاولة. فكرت شاني شاردة الذهن، أنه حقاً وسيم المظهر. ذاك الشعر مشعث جداً، بمقدورها أن تمد يدها نحوه فتلامسه...

قالت عوضاً عن ذلك: «أخبرني عن مورين».

- كانت شقيقتي بالتبني نوعاً ما.

سادت فترة من الصمت. نوعاً ما... شقيقة بالتبني... هممم!

- روبي لا تتبنى سوى الصبيان.

- إنها رائعة... عمتك روبي.

- إنها لطيفة مع الجميع.

- أنا أجرؤ على القول إنك وروبي تتمتعان بعلاقة شخصية لطيفة.

اختنق بيرس بقهوته، فابتسمت شاني ابتسامة عريضة، وتابعت: «يجدر بك أن تطلعني على بقية الموضوع.

- ليس مفيداً جداً.

- أتريدني أن أنهي عملي بالبراد؟

- أنا...

- حسناً! سوف أنهي عملي بالبراد على أي حال.

قالت شاني ذلك ووجهت له ابتسامة تنم عن الأسف. تابعت قائلة: «أنا مهووسة بإتمام عملي وإنجازه جيداً. لكن أخبرني وإلا انفجرت».

جذبت أحد كراسي المطبخ الإضافية، ثم أخذت بضع رشفات من القهوة، وأجبرت نفسها على الاسترخاء. قالت: «إنك أحد الأطفال

www.rewity.com Breathless

المشردين الذين اهتمت بهم روبي. لا بد أن ذاك كان صعباً».

هزّ بيرس رأسه وقال: «أظن ذلك... كانت لدي أم لم ترغب بي، ورفضت أن تعطيني للتبني. الأوقات التي أمضيتها برفقة روبي لم تكن صعبة. أنت لديك عائلة عادية لطيفة».

- هل تمزح؟

- حسناً! عائلة فيها أم وأب، أتخيل أنهما كانا يرغبان بوجودك.

فكرت شاني بوالديها الغريبي الأطوار، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: «نعم».

- أنا كنتُ طفلاً غير مرغوب به.

نظرت شاني إلى وجهه المتجهم. رأت أن خصلة من شعره سقطت فوق عينه اليسرى. إنها تود...

كفي عن هذا! تابع بيرس يقول: «والدتي حملت بي خلال علاقة غرامية أقامتها مع رجل ثري جداً. اعتقدت أنها لو حملت منه، سوف تجبره على الزواج منها. لكنها كانت مخطئة».

تنهد بيرس، وتابع: «على أي حال، لم يكن هنالك فحص لاختبار وجود الأيدز حينها، و... قُضي عليها. وضعتني في عهدة رعاية التبني، لكنها كانت تأخذني إليها مجدداً كلما بدأت علاقة جديدة، كي نلعب دور العائلة السعيدة. إحدى تلك العلاقات تضمنت مورين».

- لست أفهم.

- حسناً...!

هز بيرس كتفيه، وتابع: «لا فكرة لديك عن الرجال الفاشلين الذين كانت والدتي تقع في حبهم. جاك ربما كان أسوأهم، لكن كانت لديه ابنة أيضاً، مورين. انتهى به الأمر لأن يهجرها. حين تعرّف بوالدتي كانت مورين في التاسعة من عمرها، وأنا كنت في السابعة».

- إذاً؟

حثّته شاني ليتابع، فقد بدا بيرس غارقاً بأفكاره في مكان بعيد من

الماضي، وهو يحدق أمامه مباشرة.

- حسناً! إنها قصة مرعبة. جاك كان سادياً، لكن والدتي اعتقدت أن كل ما فعله كان رائعاً. لذا عشنا تحت رحمته. مورين كانت أكبر مني سناً وأكثر صلابة، ولسبب ما قررت أن تكون لي الأخت الكبرى، واعتقدت أن من الرائع أن يكون لها أخ. كانت موجودة دائماً لأجلي. تلك كانت أطول العلاقات الغرامية التي أقامتها أمي. بقينا سوياً لمدة سنتين. في كل مرة كان...

مرة ثانية هزّ بيرس كتفيه، قبل أن يتابع: «حسناً! كانت تهبّ على جاك كالنمرة، تعضه، تخدشه، تصرخ به... كان ينتهي بها الأمر أن تنال ضرباً مبرحاً مثلي تماماً».

- ماذا بعد؟

قال بيرس بحزن: «انفصلت والدتي عن جاك، ووضعنا في دارين مختلفتين للرعاية. حاولنا أن نبقى على تواصل. كانت مورين تراسلني كل ستة أشهر أو ما يقاربها، كنت أتلقى رسالة مكتوبة بخربشة، تطلعني على ما تفعله بحياتها. حين وصلت إلى سن الرشد، توقفت الرسائل. آخر رسالة بعثتها لي قالت فيها إنها التقت برجل أحلامها، وإنها ستنتقل للإقامة في بيرث».

- لكنه لم يكن... رجل أحلامها؟

قال بيرس بمرارة: «مورين كانت مندفعة، وكأنها مبنية على أساس تدمير الذات».

- المخدرات؟

- لم تتعاطَ المخدرات. ذاك كان سيعتبر بمثابة الانتحار، فهي كانت تعاني من مرض السكري.

- آه!

قال بيرس بحذر: «أرادت إنجاب الأطفال فقط. رغبت طيلة حياتها أن تحظى بعائلة. ربما لهذا السبب كانت تدافع عني بشدة. أرادت أن تحصل على عائلة مهما تطلب الأمر».

- لكن مرض السكري. . .

- هذا ما قصدته بالتدمير الذاتي. بدأ جسدها يتلاشى شيئاً فشيئاً بعد كل طفل أنجبته، إلاّ أنها بكل بساطة لم تبدُ قادرة على ردع نفسها.

تردد بيرس، قبل أن يتابع: «كلما تعرفت إلى نذل ما كانت تظن أنه الاستجابة لصلواتها، فينتهي بها الأمر بالحمل. عاشت في غرب استراليا، وفقدنا التواصل تماماً. منذ أقل من سنة، جاءت بحثاً عني. كنت أبلي حسناً في عملي كمهندس معماري في سيدني. اشتريت هذا المكان لتمضية عطل نهاية الأسبوع، وكنت راضياً جداً.

- وما الذي حصل؟

- بدأت كليتاها تتراجعان. كانت حاملاً وترفض وضع حد لحملها، مع أن الحمل سوف يدمر كليتيها. جاءت إلى مكتبي في سيدني، فأطلعتني على كل ما يتعلق بحياتها، وطلبت مني المساعدة.

- آه، بيرس!

- أصبحت مورين مريضة، إلى درجة أنها كانت تواجه خطر أن يتم وضع أطفالها في دور التبني. لم تتحمل فكرة أن تدعهم يعيشون تلك الحياة التي حظيت هي بها. حسناً! لعلني فهمت دوافعها. فيما راحت تتكلم، عادت بي الذاكرة إلى تلك المرات التي اضطرت إلى أن تتحمل الضرب لأجلي. لم يكن بيدي خيار آخر. هنالك مركز يُعنى بغسل الكلى في موريبا، يبعد مسافة نصف ساعة من هنا. عرضت عليها أن تقيم هنا، ما دامت تحتاج إلى ذلك.

حدقت شاني نحو بيرس للحظة طويلة جداً، ثم ابتسمت وقالت: «لطالما ظننت أنك فتى طيب. على الرغم من بذلتك ذات الخطوط الرفيعة».

ردّ لها بيرس الابتسامة، لكن تلك الابتسامة كلّفته قليلاً.

- حسناً! طلبتِ مني القصة بأكملها، لذا ستحصلين عليها. كنت للتو قد بدأت أعاني من المشاكل مع جيراني هنا. عندما اشتريت هذا المنزل، كانت إحدى كبرى شركات منتوجات الحليب أهم المزايدين على شراء المكان، كي

تبني مصنعها الجديد، ما يعني أن السكان المحليين لن يعودوا مضطرين إلى دفع أجرة نقل الحليب إلى المصنع. لكنني وقعت بحب هذا المكان، فدفعت ثمناً له أكثر من قيمته الحقيقية، لذا انتقل المصنع إلى مكان آخر. حالما امتلكت المكان، جاء الأطفال الأربعة مع والدتهم التي بدت مريضة جداً ويائسة، وكانت حاملاً من جديد. كنت أنا أقود سيارة رياضية صفراء مشرقة، في حين بدا الأطفال متضورين جوعاً. مورين لم تكلم أحداً عن خلفية ماضيها، ولم يسألني أحد قط عنها. حكموا علي، وألصقوا بي كل أنواع العلل تقريباً.

ابتلعت شاني ريقها وقالت: «أنا آسفة جداً».

- لا داعي لذلك. على أي حال، مورين أنجبت بيسي، ثم ازداد مرضها سوءاً. علقنا آمالنا على الحصول على فرصة لزراعة كلية لو حظينا بمتبرع، لكن ذلك لم يحصل.

- إذاً. . . الزواج؟

- مصلحة رعاية شؤون الأطفال كانت قد اعتنت بهؤلاء الصغار من قبل، خلال الفترات التي كانت فيها مورين مريضة ويائسة جداً، لذلك صار الموضوع مدوناً في سجلاتهم. ليس من الصعب فهم ذلك. هنالك أشخاص جيدون في تلك المؤسسة يهتمون، ويقلقون عليهم فعلاً. صار المجتمع المحيط بنا يتكلم بالسوء عنا. مورين بدأت تعتقد أنها حالما تموت، فسوف يرسلون أولادها إلى دور التبني، بغض النظر عما أريده أنا.

- هنالك بعض. . .

بدأت شاني تتكلم بحذر، لكن بيرس تابع كلامه قبلها قائلاً: «لا تقولي لي إن هنالك دوراً رائعة لتبني الأطفال. الأهل بالتبني هم بعض أفضل الأشخاص في العالم. إنهم كرماء، طيبو القلوب، يستقبلون كل الوافدين الجدد، على الرغم من أن التعلق بهم قد يكون مؤلماً، إذ تنفطر قلوبهم مراراً وتكراراً.

- يا إلهي! هل أصبتُ وتراً حساساً؟

تدبر بيرس اعتذاراً وابتسامة قائلاً: «آسف».

أخفض صوته، وتابع: «لو لم أحظَ بروبي، لكنتُ في ورطة كبرى الآن. لكنني كنت بمفردي، وهؤلاء الأولاد ليسوا كذلك. على الرغم من أن مورين كانت عديمة الكفاءة في غالبية الأحيان، إلاّ أنهم يحبون بعضهم البعض، وسوف يدافعون عن بعضهم البعض حتى الموت. يجب ألاّ يتم التفريق بينهم مطلقاً، وهنا تكمن المشكلة. أتظنين أن هناك من هو مستعد لأخذ الأطفال الخمسة سوياً؟».

- أظن... ربما لا.

- وندي كانت راعية مورين الأساسية لسنوات. تطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى أقنعها أنني أستطيع المساعدة، وحتى الآن هي لا تثق بي تماماً. لِمَ عساها تفعل؟ لكنني بكل بساطة لم أحتمل...

- وبالتالي تزوجت من أمهم.

- نعم. تحركنا بسرعة، قبل أن تصبح مورين مريضة جداً. تزوجنا، ثم قدمت طلباً حتى أتبناهم بصورة قانونية. مورين ملأت كل الأوراق بموافقتها، ووكلتني لأصبح الوصي القانوني عليهم.

- آه، بيرس!

- فكرت أن أضع الأطفال في منزلي، وأوظف مدبرة للمنزل قادرة على إدارة المزرعة، وأن آتي إلى هنا خلال عطلات نهاية الأسبوع.

- لكن؟

- ألديك أي فكرة كم يصعب إيجاد مدبرة منزل لخمسة أطفال في هذا المجتمع؟ وجدت امرأة قامت برعايتهم لفترات متقطعة لبعض الوقت، لكن الأطفال كرهوها، فاستقالت منذ أسبوعين. والآن أصابهم الجدري، وسيتبع ذلك العطلة المدرسية. أنا أدور في دوامة.

- أرى ذلك.

- بعدئذٍ قالت روبي إنها اتصلت بكِ وأقنعتك بأن تجربي، وها أنا قد حظيتُ بيوم واحد من رعاية الأطفال، وبمطبخ نظيف وبراد نظيف لامع. وبأطفال لم يؤخذوا مني اليوم. وأنا ممتن لذلك.

تردد بيرس، ثم قال: «شاني! هل أجرؤ أن أطلب منك أن تبقي؟».

- أنا لست مدبرة منزل.

- إنك بارعة جداً في الفرك والتنظيف.

- هذا فقط لأنني بحاجة إلى تفجير غضبي.

- روبي تقول إنك فنانة.

- أنا لست كذلك.

- أحقاً؟

- أنا أحب العمل بالطلاء ورشّه. هل رأيت البقرة التي رسمتها بعد ظهر اليوم؟ إنها ممتازة، باستثناء أن إحدى قوائمها تبدو أطول من البقية. قمتُ بقياسها، ووجدت أنها ليست أطول. المشكلة تكمن في زاوية الرؤية، لكنني أستطيع أن أتدبر أمرها.

- إذاً أنت رسّامة تجريدية؟

- حصلتُ على إجازة في الفنون الجميلة. عملت مشرفة في معرض فني صغير هنا، ثم في معرض أصغر في لندن، ثم ادخرت ما يكفي من المال حتى أفتح معرضاً خاصاً بي. كان صغيراً جداً، لكنه كان مكرساً للفنون التي أحبها. والداي أقرضاني المال، فكنت أقتصد إلى درجة أنني ما عدت آكل. وضعت كل ما كان لدي في ذاك المعرض.

- وبعد...؟

- كما قلتُ لك، قبضت على صديقي وهو يقيم علاقة حميمة مع إحدى عارضاتي. قمتُ برمي المياه المثلجة عليهما، فانتقم مني باستخدام بطاقاتي المصرفية. كان أمامي خياران: إما أن أخاطر بمال والدي وأستمر بالمحاولة، أو أن أنسحب. وهكذا انسحبت.

تردد بيرس، ثم سألها: «ألم تحاولي أبداً استعادة مالك؟».

- قال لي إنه سيرفع دعوى قضائية يتهمني فيها بالاعتداء.

قال بيرس بحذر: «فهمت. لذا هربت إلى الديار».

- نعم هربت إليك.

– قد يساعدك لو بقيت هنا لبعض الوقت ريثما تستجمعين قواك؟

أقرت شاني قائلة: «قد ينفع الأمر، لكنني لا أنوي أن أقع بحب هؤلاء الأطفال».

– بالطبع لا.

– أنا لا أهوى الأطفال، وأنا... لا أهواك أنت.

آه... آه! لماذا تراها قالت ذلك؟ جاء كلامها من حيث لا تدري، لكن فجأة بدا لها من المهم أن تقوله.

سُمع نشيج من الطابق العلوي، تصاعد سريعاً ليصير صراخاً حاداً. أجفل بيرس، فوضع كوب القهوة من يده متنهداً، ونهض قائلاً: «نامت لمدة ثلاث ساعات. لا يمكنني أن أتوقع منها أكثر».

– ما الذي ستفعله الآن؟

– سوف أعانقها، وأحتضنها حتى تعود إلى النوم.

مشى بيرس نحو الباب، ثم توقف وقال: «شاني! قدمتِ لي مساعدة هائلة اليوم، وأنا ممتن لك بعمق. لن أضع المزيد من الضغوطات عليكِ، لكنك بحاجة إلى سرير تنامين فيه الليلة على الأقل».

٤ - ليلة عصيبة

نظفت شاني الأطباق، ثم أنهت عملها في تنظيف البراد، وأعادت إليه الأطعمة التي ما زالت تصلح للأكل فعلاً. أخيراً شقت طريقها عبر البيت المعتم نحو غرفة نومها. استطاعت أن تسمع صوت خطى تروح جيئة وذهاباً في الطابق العلوي، كما سمعت همدرة رجولية ناعمة. لا بد أن بيرس يحاول جعل بيسي تسترخي. إنه رجل عازب، وقد تبنى خمسة أولاد لا يعرفهم. إن أقل ما تستطيع أن تفعله هو مساعدته.

مشت نحو السرير. لا بد أن هذه هي غرفة النوم الرئيسية. لماذا اشترى بيرس منزلاً يحتوي على غرف نوم عديدة؟ أتراه فكر بأن ينشئ عائلة كبيرة لنفسه؟ التفكير به وهو يروح جيئة وذهاباً في الطابق العلوي، فيما هو يعانق طفلاً، ويحتضنه بملاصقة صدره... بدا صورة جذابة جداً. توقفت خطوات بيرس فوق رأسها تماماً، فسمعته يقول لبيسي: «أعلم أنه يسبب لك الحكاك. لكننا جميعنا بحاجة إلى النوم».

بعدئذٍ سُمعَ النشيج من جديد.

– أتعاندينني مجدداً بيسي! نحن بحاجة لأن نتوقف عن هذا.

قررت شاني أنه أكثر من مجرد رجل جذاب. إنه رائع!

قالت لنفسها: اذهبي إذاً إلى السرير، وكفي عن التفكير به.

عبرت نحو النافذة، وسحبت الستائر، رأت بقرة على بعد بضعة إنشات من أنفها. تدبرت أن تبقى صامتة، فيما حدّقت البقرة إلى الداخل. أحست بالرضى على نفسها لأنها لم تزعق. آخر شيء تريده هو أن يأتي بيرس راكضاً على الدرج لأنها خائفة من بقرة. حسناً! البقرة في الخارج، أما هي ففي

الداخل. يا لها من بقرة ضخمة جداً! لم تكن البقرة تحدق مستكينة، بل كان رأسها يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف، كما لو أنها مرتعبة. هل تخاف الأبقار؟

بدأت بيسي تزعق مجدداً في الطابق العلوي. من الواضح أن إغواء النوم مع بيرس لم يهدئها. سادت لحظة سكون، إذ توقفت بيسي لالتقاط أنفاسها، ثم بدأت بالصراخ من جديد.

- اخرجي!

ظنت شاني نفسها لوهلة تتخيل الأمور...

- اخرجي من الحديقة!

إنه صوت ولد يصرخ. بدا ذلك كمحاولة لأن تبدو لهجته آمرة، لكن صوته حمل بوادر الخوف بوضوح.

رفعت شاني النافذة إلى الأعلى قليلاً فقط، خشية أن تتمكن البقرة من إدخال رأسها. كان القمر بدراً، فاستطاعت شاني أن ترى الحديقة بوضوح. كان هذا دونالد البالغ من العمر سبع سنوات. إنه الفتى النحيل ذو العينين الخائفتين والنظرة التي تقول إنه لا يثق بالعالم أجمع.

صرخت شاني به: «ماذا تفعل هناك في الخارج؟».

استدارت البقرة لتنظر إليها. إنها بقرة كبيرة فعلاً.

- لا يجدر بها أن تكون في الحديقة.

قال دونالد ذلك وهو يجاهد كي يبدو شجاعاً، ثم تابع: «أحدهم ترك البوابة الحديدية مفتوحة. رأيت ذلك من النافذة. سوف تأكل نبتة الورد التي زرعها بيرس عندما توفيت والدتنا».

خرجت من دونالد حازوقة تخفي نشيجاً، بعدئذٍ قال: «أنا أطردها خارج البوابة، لكنها لا ترحل».

- دونالد! إنك صغير جداً كي تطرد الأبقار. سوف أحضر بيرس.

رأت شاني أن كتف دونالد تتصلب من فرط عزمه، ثم قال: «إنه منشغل مع بيسي. وأنا لست صغيراً جداً. يمكنني أن أفعل ذلك».

- لكن...

قال دونالد للبقرة: «اخرجي من هنا».

لكنه تراجع إلى الوراء ليختبئ خلف أجمة نبتة الكاميليا. بدا الصبي مرتعباً على الرغم من جرأته.

قالت شاني لنفسها إن الأبقار غير مؤذية، فيما تذكرت كلمات صديقتها المزارعة. سوف تذهب إلى الطابق العلوي، وتعرض على بيرس أن تأخذ منه بيسي ريثما يحل هذه المسألة. فكرت شاني بذلك، لكن زعيق بيسي ازداد قوة. هنالك خطران أمامها: الطفلة الباكية والبقرة. كلاهما مرعب بقدر متساوٍ.

- هيا... اذهبي من هنا!

صرخ دونالد بذلك، لكن البقرة لم تتحرك. حسناً! إنها قادرة على أن تفعل هذا. صرخت من النافذة: «دونالد اهرب إلى الشرفة. سوف أتعامل مع البقرة».

فكرت شاني أن كلامها بدا عازماً. من حسن حظها أنها ما تزال ترتدي سروال الجينز وسترتها. توجهت عبر البيت المظلم نحو الباب الخلفي. في الخارج بدت الحديقة واسعة، أما القمر فبدا مكتملاً. استدارت حول المنزل، فاستطاعت أن ترى الشكل الباهت للبقرة، إذ ظهر من خلفها النور المضاء في غرفة نومها. ما زالت البقرة تبدو بالغة الكبر وخطيرة. لكنها لم ترَ دونالد. الشرفة الأمامية للمنزل تبدأ بعد نافذة غرفة نومها مباشرة، ودونالد ليس على الشرفة. رأت البوابة المؤدية إلى المراعي مفتوحة على مصراعيها. ما دامت هناك بقرة واحدة، فمن المحتمل أن يكون هناك المزيد. نظرت شاني حولها بتوتر، لكن... لا شيء، إذاً... بقرة واحدة. حسناً! أين دونالد؟

- هيا... من هنا!

جاء صوت دونالد من خلف أجمة الكاميليا. فأخذت البقرة تتحرك باتجاه صوته. إنها ضخمة جداً...

- دونالد!

صرخت شاني، وقد أقرت لنفسها أخيراً، بأنها خائفة فعلاً. مهما كان ما أخبرتها به جولز عن الأبقار، وبعدم كونها مؤذية، بدا لها فجأة أنها لا تصدق أي كلمة من ذلك: «دونالد!».

أخفض الحيوان رأسه الهائل، وركز كل ذرة من انتباهه على شيء ما خلف نبتة الكاميليا. إنه يقترب...

- شـ... شاني...!

بدا ذلك همساً مرتعباً، أما بالنسبة إلى ذاك الحيوان فبدا صوت دونالد كصوت المسدس الذي يعطي إشارة الانطلاق. إذ اندفع الحيوان بقوة إلى الأمام.

- دونالد!

صرخت شاني وهي تنطلق في الظلام من دون أن ترى شيئاً. كان الحيوان يندفع بقوة نحو صوت دونالد المرتعش، فصدمته شاني على جانبه، فضربته بكل ما أوتيت من قوة حتى أزاحته من مساره. صرخت للصبي: «ادخل إلى المنزل. اركض، دونالد. اركض».

صرخ الطفل بصوت مرتفع: «بيرس! بيرس!».

رأت الحيوان يتأرجح على جانبه. راح يشخر ويتراجع إلى الخلف. يا إلهي...! ما الذي يفعله مصارعو الثيران؟ هذا المخلوق يستدير ليواجه دونالد مجدداً. دونالد كان يحاول الصعود متخبطاً نحو الشرفة، لكن الشرفة تعلو عن الحديقة حوالى الثلاث أقدام، أما الدرج فهو بعيد جداً عنه. إنه لن يتمكن من رفع نفسه. بدأ الحيوان يتحرك مجدداً.

- لا!

انطلقت شاني إلى الأمام مجدداً صارخة، وراحت تطرق بقبضتيها على جانب رأس الحيوان.

استدار الحيوان حول نفسه بسرعة كبرى، حتى إن شاني لم تستطع أن تتحرك لتتفاداه. صرخ دونالد مجدداً: «بيرس!».

لدى هذا الحيوان قرنان. إنه ثور! قبضت شاني على أحد القرنين،

وتعلقت به. تأرجح الحيوان بجموح تام، وقذفها جانباً، فاستقرت عاجزة على بعد أربعة أقدام من رأسه. تراجع الحيوان لينظر إلى الشخص الذي هاجمه، وأخيراً انحرف عن دونالد. انقلبت شاني على جانبها، محاولة إيجاد القوة لتقف على قدميها.

- لا!

دفعت شاني نفسها بقوة إلى جانبها، فانقلبت على الحشائش. آه، يا إلهي! صدم الثور كتفها بخبطة مثيرة للغثيان. أحست شاني بشيء ينسحق وبألم حاد واخز، لكنها استمرت في انقلابها على الأرض.

فجأة ظهر لاعب جديد على الساحة: «اخرج، اخرج، اخرج!».

هذا كان صوت رجل يصيح بحدة. إنه بيرس. جاء راكضاً نزولاً عن الشرفة، وهو يصرخ بأعلى صوته من أعماق رئتيه، حتى ملأت صرخاته عتمة الليل. أجفلت شاني متوقعة الصدمة التالية، لكنها لم تأتِ.

- اخرج، اخرج، اخرج!

انقلبت شاني مجدداً إلى عمق الظلام، ثم تجرأت أن تنظر. كان الثور يحدق بها، وهو يضرب الأرض بحافره كأنه يتحين اللحظة المناسبة للضربة التالية. لكن بيرس وصل إلى جانبه، وقد ظهرت حدود جسده الخارجية في ضوء القمر. كان يؤرجح شيئاً ما يبدو كالبندقية. فكرت شاني أنه يجدر به أن يطلق النار على الثور، لكنها شعرت بالدوار، ولم تقوَ على التفكير أكثر.

- هيا... تحرك، تحرك، تحرك!

اندفع بيرس بقوة نحو الثور، وراح يجلده ببندقيته كما لو أنها سوط. استدار الثور ليواجه بيرس.

- اخرج، اخرج، اخرج!

لم يعطه بيرس وقتاً للتفكير. وقف مباشرة أمام الحيوان وهو يلوّح بسلاحه ويجبره ليسير إلى الأمام. راح بيرس يصرخ، يضرب، يدفع... تراجع الثور، ثم تراجع أكثر. أما بيرس فلحق به. دفعه للعودة إلى الوراء، إلى خارج الحديقة. استدار الثور مرتبكاً، وراح يسير متثاقلاً نحو البوابة. ما

إن خرج من البوابة الخشبية الضخمة حتى تأرجحت البوابة وانغلقت بصفعة قوية. رمى بيرس السلاح جانباً.

- دونالد، هل أنت بخير؟ دونالد...!

راح بيرس يمشي بخطوات واسعة عبر الحديقة، ثم قفز إلى الشرفة، فجذب دونالد بين ذراعيه، وقال: «ماذا بحق الجحيم...؟».

ارتجف صوت دونالد وهو يقول: «شاني...».

- هل أنت بخير؟

استطاعت شاني أن ترى شكليهما على الشرفة سوياً. جاء كلام دونالد همساً وهو يقول: «نعم. لقد هاجم شاني. إنها في الأسفل».

- شاني؟ أين؟

وضع دونالد بعيداً عنه على مسافة من ذراعيه.

- كان يحاول أن ينطحها. أنا... أنا أظنه فعل ذلك.

- ابقَ هنا يا، صغيري. لا تتحرك.

قفز بيرس عن الشرفة، أخذ يسحق الأعشاب ويسير من خلالها باحثاً. قال: «شاني... شاني! أين أنتِ؟ شاني...!».

أرادت شاني أن تتكلم، لكن صوتها لم يجدِ نفعاً، ثم تدبرت أن تقول: «أنا هنا».

أطلق بيرس شتيمة ثم أخرى، فيما غاص بين الأعشاب، وركع إلى جانبها. وضع يده على كتفها، فأحس بلزوجة الدم الدافئ. توقف عن اللعن... توقف عن التنفس حتى.

دخلوا جميعاً إلى المطبخ... الجميع. كانت وندي تجلس على الكرسي الهزاز قرب النار، وهي تحتضن بيسي، أما دونالد فوقف على مقربة من وندي على قدر ما استطاع أن يدنو منها. فيما جلست آبي عند قدمي دونالد. أما برايس فقرر أن الجميع بحاجة إلى الكاكاو الساخن، فأخذ يحضّره ببطء شديد. إذ كانت يداه ترتعدان. شاني نفسها كانت ترتعد بشدة. مزّق بيرس سترتها، فكشف عن خدش طويل، امتد من تحت ذراعها حتى كاد يصل إلى

عنقها. حمل بيرس طاساً فيه ماء مع الصابون وراح يغسل جرحها وهو يشتم تحت أنفاسه.

همست شاني:

- ليس أمام الأطفال.

تكلم بيرس متذمراً، فيما مسح كتفها بالمنشفة بعناية قائلاً: «أنا أقفلت تلك البوابة. كانت مقفلة تماماً. أنا لست غبياً. ثمة من قطع السلسلة الحديدية».

- ثور ماهر.

جرش بيرس قائلاً من بين أسنانه: «هذا الثور سوف يصير نقانق».

ثم هزّ رأسه قائلاً: «لست أدري ما الذي يجري. هنالك أمور تحدث، ولست أفهمها».

كان بيرس يتفحص جرح شاني ووجهه عابس، فتابع: «لا أظن أن الجرح بحاجة إلى خياطة، لكن ربما نحن بحاجة لأن نأخذك للمعاينة».

- لسنا مضطرين إلى ذلك. فقط ضع ضمادة على الجرح، الضمادات سوف تجعلني أتحسن.

نظرت شاني نزولاً نحو عيني آبي الواسعتين، وقالت: «ألا تجعلكِ الضمادات تتحسنين؟».

ردت آبي: «وحبوب الجيلاتين المحلاّة أيضاً... هنالك ضمادات في الحمام».

عانقت آبي رجلي دونالد أكثر قليلاً، ثم نهضت على قدميها بسرعة. بدا كأنها تقدم تضحية شخصية وهي تقول: «سوف أحضر الضمادات، لكنني لست أعرف بشأن حبوب الجيلاتين المحلاّة».

فكرت شاني، يا لهؤلاء الأطفال...! إنهم أكثر الأطفال شجاعة. استطاعت أن تفهم تماماً لِمَ لم يرغب بيرس بأن يفصل بينهم. طالبت شاني قائلة: «هل لدينا حلوى الجَيلاتين؟».

قال بيرس بأسف: «لا. إنه تقصير من جانبي».

نظرت شاني إلى دونالد قائلة: «أي نوع من الآباء هو هذا الذي لا يوفر حلوى الجيلاتين لأولاده؟».

قال دونالد مدافعاً: «إنه رجل طيب، لكنه بحاجة إلى مساعدة».

ابتلعت شاني ريقها. كانت كتفها تؤلمها ألماً مبرحاً، لكن الوقت ليس مناسباً للتذمر. بدا دونالد شاحباً جداً، وكأنه على وشك أن يغمى عليه. فكرت شاني أنه بحاجة إلى من يحتضنه حتى يزول الخوف والرعب من داخله، لكن تصلب كتفيه الصغيرتين الثابتتين يدل على أنه لن يتقبل الاحتضان، لا منها ولا من بيرس. إنه يتمالك نفسه بشجاعة. قالت شاني: «قلم حبر وورقة. دونالد، بسرعة».

- ماذا... لماذا؟

عادت آبي حاملة الضمادة المطاطية. فبدأ بيرس بفتح الضمادة ولصقها على جرحها. قالت شاني بجرأة: «سجّل في رأس القائمة: حبوب الجيلاتين المحلاة».

قال بيرس: «الغرض التالي على القائمة: مكنسة».

رمشت شاني، وسألته: «هل نحن بحاجة إلى مكنسة؟».

- كسرت المكنسة عندما دفعت البوابة لأقفلها.

- أكنت تحمل مكنسة؟ ظننتك تحمل بندقية. يا بطلي! بطلي الذي يحمل عصا المكنسة.

تعليقها دفع بيرس إلى الابتسام. جعلها هذا تشعر بإحساس جيد. تابعت تقول لدونالد: «مواد لتحضير الهوت دوغ».

سأل بيرس: «لماذا الهوت دوغ؟».

- لأنني أشعر برغبة في تناول الهوت دوغ، كما أنني جريحة، ويحق للأشخاص المجروحين أن يطلبوا ما يرغبون به.

قال دونالد بحذر: «أنا أحب الهوت دوغ».

أخبرته شاني وهي تبتسم ابتسامة عريضة: «أظنه يصنع من لحم الثيران. دوّن حصتين مزدوجتين من الهوت دوغ حالما نتمكن من الوصول إلى المتجر».

حذّرها بيرس قائلاً: «قد يكون ذلك الأسبوع القادم. فأنا أطلب توصيل البقالة إلينا يوم الإثنين».

تنهدت شاني قائلة: «يوم الإثنين بعيد جداً. لو كانت المتاجر مفتوحة الآن لرغبت بتناول الهوت دوغ حالاً، لكنني مستعدة أن أقدم تضحية شخصية هائلة، وأن أنتظر حتى يوم غد. وندي وأنا يمكننا أن نعتني بالمنزل. وأنت يمكنك أن تأخذ دونالد وتقوم معه برحلة تسوق. رحلة بحث عن الهوت دوغ».

- هل يعني هذا أنك ستبقين لبعض الوقت؟

سألت وندي ذلك، وبدا كل من في الغرفة وكأنه يحبس أنفاسه. هل ستبقى؟ حدقت شاني بأرجاء الغرفة فرأت خمسة وجوه محتاجة، بل ستة لو احتسبت بيرس الذي يحاول أن يبدو غير مهتم. فكرت أنه يبدو محتاجاً أيضاً. قالت بلا مبالاة ومن دون أن تنظر إليه: «إن كنت لا تمانع، جئت إلى هنا لأداوي عزة نفسي الجريحة، والآن كسرتُ كتفي أيضاً وعلي أن أتعافى. عملية التعافي قد تستغرق بعض الوقت».

تطلب الأمر بعض الوقت حتى استقر الجميع وذهبوا إلى أسرّتهم. جلست شاني على الكرسي الهزاز الكبير بالقرب من النار، فيما وضع بيرس أولاده في الأسرّة. غرف نوم الأطفال تقع في الطابق العلوي. استطاعت شاني أن تسمعهم يتكلمون بأصوات مكتومة؛ أسئلة الأطفال، وأجوبة بيرس المهمدرة، ونحيب بيسي الشاكي... صوت وندي الذي يبدو متحكماً مسيطراً...

أخيراً حل السكون في الطابق العلوي. فكرت شاني أنه يجدر بها أن تذهب إلى الفراش، لكن الكرسي القديم الذي يهزها بلطف وقرقعة النيران داخل الموقد أشعراها بالاسترخاء. فكرت أن تغفو حيث هي، فذلك أفضل بالنسبة إليها من ذهابها إلى سرير غريب...

قال بيرس وهو واقف في مدخل الباب: «لماذا لستِ في السرير؟».

قالت شاني من دون اقتناع حقيقي: «سأذهب حالما أشعر بالدفء».

بدا بيرس قلقاً، لكنه ظل واقفاً بالباب من دون أن يدنو أكثر. قال: «أترغبين بتناول العصير؟».

- لا. أنا... لا، شكراً! هل قلتَ إن البوابة كانت مغلقة؟

تردد بيرس، لكنه بقي في مكانه وهو يقول: «تحققت منها مرتين. تم قطع السلسلة بقاطعة الأقفال، وكأن أحدهم حرّك كلايد وأثاره. أنا لن أهدد بذبحه وبتحويله إلى نقانق بعد الآن. إنه واقف بملاصقة السور، وهو يرتعد بقدر ما ترتعدين أنت تقريباً. هنالك سلسلة من الجروح الصغيرة على خاصرته. أظن أن شيئاً ما كمسدس الخرز قد استخدم لأذيته. في العادة، حتى لو فتحت بوابة كلايد، فهو لا يلاحظ أنها مفتوحة. لكنك لو فتحتها، وبدأت بإطلاق الكرات الصغيرة نحوه، فهو قد يصاب بالرعب. ولو استمر بالتألم من دون أن يفهم السبب، فمن المرجح أن يهاجم أي شيء متحرك أمامه».

راحت شاني تحدق به مرعوبة، وقالت: «لكن هذا... هذا عمل إجرامي. ذاك أمر شنيع».

قال بيرس بتجهم: «أظنهم يستهدفونني. إنهم يفترضون أنني أنا من سيخرج لتفقد الماشية التي تتجول بحرية في الحديقة. لن يفترضوا أن صبياً في السابعة من عمره هو من سيخرج».

- هل يكرهونك بهذا القدر؟

رد بيرس بعبوس: «ليست الكراهية. كل ما في الأمر أنهم لا يعرفونني. أنا مليونير أتيت لتمضية عطل نهاية الأسبوع، وقد أوقفت مسار إنشاء مصنع يحتاجه هذا المجتمع. وفضلاً عن كوني غنياً وغبياً، أجبرت المجتمع على خسارة مصنعه، فأنا أيضاً أب عازب تراقبني مصلحة رعاية شؤون الأطفال لتنال مني بتهمة إهمال الأطفال. نعم، إنهم يودون لو أنني أوضب أغراضي وأرحل من هنا».

سألت شاني بحذر: «إذاً لماذا لا تفعل ذلك؟ بإمكانك أن تعود إلى عملك في الهندسة المعمارية في المدينة، أما الأطفال فبإمكانهم أن يذهبوا إلى المدرسة

ثم إلى حضانة ترعى الأطفال خلال النهار. يمكنك أن توظف مدبرة منزل بسهولة أكبر في المدينة».

هز بيرس رأسه وقال: «لن ينجح الأمر، أو ربما لستُ واثقاً من أنه قد ينجح. ربما قد أصل إلى هذا القرار، لكن مورين أرادت بشدة أن ينال هؤلاء الأطفال مساحة لينموا بحرية».

ترددت شاني، ثم قالت: «حسناً! على الأقل سأكون أنا موجودة لبعض الوقت... إذا أردتني».

سادت لحظة من الصمت، ثم قال بيرس بقوة حادة جعلت شاني تطرف بعينيها: «أنا أريدك فعلاً».

تدبرت شاني أن ترسم ابتسامة على وجهها، وقالت: «حسناً! شكراً لك».

سألته بعد لحظات من الصمت: «ألست في سياق البحث عن زوجة؟».

- ما رأيكِ أنت؟ لدي خمسة أولاد، وأنا حتماً... بحق الجحيم! لست بحاجة إلى زوجة أيضاً.

تدبرت شاني أن تقول: «أنا محظوظة لأنك أخبرتني. إذ بدأت التخطيط مسبقاً لحفل الزفاف».

جعله هذا الكلام يجفل، فقال: «اللعنة! شاني، أنا لم أقصد...».

علقت شاني بهدوء: «لا بأس! أنا قمت بما يكفيني من التخطيط للزفاف... ما يكفيني طوال العمر».

- مع مايك الذي تلقى دلو الماء المثلج؟

استنشقت شاني نفساً عميقاً، محاولة تصفية ذهنها. قررت أن تكشف جميع أوراقها، فقالت: «كم كنت غبية! أنا حقاً في ورطة. استخدمت كل قرش أملكه حتى أعود إلى أستراليا، فوجدت أن والديّ أجّرا منزلهما، أما صديقتي الحميمة فتقيم في شقة صغيرة جداً. كنت خارج البلد لمدة سبع سنوات، وليس هنالك أي شخص آخر يمكنني أن أتطفل عليه باستثناء روبي وسيداتها اللواتي يشتغلن بالتطريز».

قال بيرس: «يا لها من شقة علوية تقيم فيها! إنها أربعون قدماً من الفخامة، تطل على مرفأ سيدني».

عبست شاني، وقد شت تفكيرها فجأة، روبي...! روبي التي لم تمتلك يوماً قرشاً واحداً باسمها، فجأة صارت تختال في شقة علوية في الضاحية الأكثر تميزاً في سيدني: «هل قدمت لها تلك الشقة؟».

- نحن جميعاً فعلنا. ألم تخبرك روبي عن بقية أبنائها؟

- بالطبع فعلت.

تذكرت شاني الصورة الفوتوغرافية التي كانت روبي تحملها معها إلى كل مكان. روبي العجوز اللطيفة، التي كرست كل دقيقة من حياتها لأولادها.

- روبي آوتنا، وقدمت لنا كل ما نحتاجه. بمناسبة عيد مولدها السبعين قدمنا لها الشقة، شرط ألاّ تبيعها وألاّ تهبها للمشردين. لم يعد مسموحاً لها أن تأوي المشردين.

- غير مسموح؟!

- آن الأوان لأن نحميها من نفسها. لو لم نشترط ذلك، هل كنتِ تأملين باستخدام غرفة الضيوف لديها الآن؟

تنهدت شاني، وقالت: «لا. حسناً! لولا صفوف تعليم التطريز، فهي لا ترفض أي شخص يطلب المأوى».

- هل أنت فعلاً يائسة؟

- يمكنني أن أحصل على وظيفة. مع أن عالم الفنون صغير جداً، والناس يعرفون أن صالة العرض الخاصة بي فشلت.

- إذاً سوف تقبلين بهذه الوظيفة؟

- أظن ذلك... لا بد أنني مجنونة لأبقى هنا. حقاً! لا بد أنني بلهاء. جل ما علي فعله هو أن أتصل بوالدي، وسأكون بخير، لكنني أعرض عليك أن أبقى هنا.

- لماذا؟

- لأن دونالد كان سيتولى أمر ذاك الثور بنفسه، بدلاً من أن يحملك على

ترك أخته الطفلة لتفعل ذلك، ولأن وندي تبدو أكبر سناً من عمرها الحقيقي، ولأن هذا المنزل في حالة من الفوضى... كما أنني بحاجة إلى وظيفة، لذا يجدر بي أن أؤدي وظيفة تستحق أن أقوم بها. أتقول إنك ثري؟

إنه تغيير مفاجئ في التكتيك جعله يرمش قائلاً: «أنا... نعم».

- هل يمكنك أن تتحمل نفقات أخذنا جميعاً إلى شاطئ البحر؟

- البحر؟

- هؤلاء الأطفال يبدون كما لو أنهم يتوقعون أن يهبط ثقل العالم على رؤوسهم في أي لحظة. هل ابتعدوا عن هذا المكان منذ وفاة والدتهم؟

- لا، لكن...

- إنها فترة العطلة المدرسية. هاك إذاً! خذنا في رحلة إلى الشاطئ.

- كيف عساني آخذ خمسة أولاد، من ضمنهم طفلة تعاني من مرض الجدري، إلى البحر؟

قالت شاني بنفاد صبر: «سوف آتي أنا أيضاً. أنا أحب الشاطئ. الأطفال يتعافون من مرض الجدري، وأنا أتعافى من الإذلال، وأنت بحاجة لأن تعمل. ما أقترحه هو أن نستأجر شقتين لمدة أسبوعين تقريباً. واحدة لك وأخرى لي. على الشاطئ تماماً في مكان راقٍ. أترى كم أبرع في صرف أموال الآخرين؟».

- وكيف سينجح ذلك؟

- خلال الليل سوف أتشارك في الشقة مع الفتيات وأنت ستتشارك مع الصبيان. أما خلال النهار فبإمكان الأطفال أن يبقوا معي، وسوف نلعب على الشاطئ.

- أترغبين في الذهاب إلى الشاطئ؟

قالت شاني بأسف: «عانيت من الإنفلونزا. ذاك الصباح حين وجدت مايك... حسناً! تلك كانت بداية ثلاثة أسابيع من المرض. وكل يوم منذ ذلك الحين وأنا أفكر بالبحر. منزل والدي يقع على البحر شمالي سيدني. كنت متوجهة إلى هناك، فانتهيت تحت نبتة الكاميليا اللعينة بانتظار أن يحولني كلايد

www.dvd4arab.com Breathless

إلى نقانق، وجلّ ما استطعت أن أفكر به حينها هو أنني لم أقصد الشاطئ بعد».

رقّت ملامح وجه بيرس للحظة، وابتسم ابتسامة لطيفة رقيقة جعلت شيئاً ما في داخلها ينقلب.

- يمكنني أن أقرضك المال لتذهبي إلى الشاطئ. لا! إنه ليس قرضاً، فبعد كل ما فعلته لأجل عائلتي اليوم، أنت تستحقين الحصول على إجازة من دوننا.

قالت شاني بفخر وهي تهز رأسها: «قد أكون غبية، لكنني عالقة الآن. كل شيء أو لا شيء».

- لكنك لا تريدين الالتزام المطول بهؤلاء الأطفال.

- هل تمزح؟ بالطبع لا! فقط أسبوع أو أسبوعان على الشاطئ ريثما نتعافى...

دسّ بيرس يديه إلى أعماق جيبيه. أخيراً قال: «أنا فعلاً بحاجة لأن أعمل. هنالك مشروع عليّ أن أفاوض عليه مجدداً. لو كان بإمكاني أن أحصل على وقت لذلك».

أقرّت شاني: «يمكننا أن نبقى هنا، لكننا جميعاً بحاجة لأن نغير الأجواء».

- حسناً! أنت على حق. سوف نتحدث عن ذلك في الصباح.

ترك بيرس الباب، فعبر نحوها حيث جلست رابضة أمام النار. قال: «ما زلتِ ترتعدين».

ردت شاني: «أنا فقط غير معتادة على الثيران».

- لا أحد منا معتاد على الثيران. كاد الثور يقتلك، لكن لو لم تخرجي إلى الحديقة لقتل دونالد.

تذمرت شاني قائلة: «يا إلهي! أهذا هو نوع الكلام الذي تقوله كي تخفف من ارتعادي؟».

- شاني، إنك مرهقة جداً.

تردد بيرس للحظة، ثم هز كتفيه وكأنه يزيل عنه أية حيرة يشعر بها. وقبل أن تدرك شاني ما ينوي عليه، انحنى إلى الأمام، وحملها بين ذراعيه، ممسكاً بها بملاصقة جسده.

- ماذا بحق...؟

- سوف آخذك إلى السرير، لكن ليس في غرفة مورين. لم يدخل أحد إلى الغرفة منذ وفاتها. هنالك سرير إضافي في غرفة وندي. أظنك بحاجة إلى الرفقة كي تنامي.

ثم ابتسم، وقال: «أود أن أعرض عليكِ خدماتي، لكن سريري مشغول للتو. أنا وبيسي... فتاة أحلامي».

حملها بيرس إلى السرير الإضافي الموجود في غرفة الفتيات. ساعدها على خلع ما تبقى من سترتها الواقية من الهواء. بدا بيرس مستعداً ليساعدها أكثر، لكنها تيقظت فجأة.

- أنا بخير.

فجأة تغيرت الأجواء بينهما. سمحت له بأن يحتضنها فيما صعد الدرج، لأنها تحتاج إلى الدفء، لكن فجأة حل التوتر... انسحب بيرس، وتركها تقوم بعملها. استطاع أن يرى أنها مرتبكة، وهكذا كان هو بدوره.

عاد بيرس إلى غرفته، فوجد أن بيسي نائمة. هذه نعمة مزدوجة. قال لها: «عندما أكون مستيقظاً يجدر بك أن تستيقظي أيضاً، لا أن تبدأي بالعويل ما إن أخلد إلى النوم».

لكن بيسي لم تكن تصغي، إذ حشرت قبضتها المكتنزة في فمها، وراحت تمتص بجدية مفاصل أصابعها، فيما غرقت في نوم عميق. يجدر به أن ينام هو أيضاً. لكن أموراً كثيرة حصلت بسرعة كبرى. ما زالت ضربات قلبه تدق بمعدل مرتفع، ولن تتباطأ في وقت قريب. عندما وضع يديه تحت نبتة الكاميليا باحثاً عن شاني، وأحس بالدم، انتابته أسوأ الأفكار لبضع لحظات شنيعة، إلى أن حملها نحو الشرفة، وتمكن من رؤية مدى الضرر. قال بيرس لبيسي النائمة: «لستُ بحاجة إلى شخص آخر أقلق عليه. مشردة سلبها

صديقها الحميم كل ما تملكه، وتركها والداها بمفردها».

تابع محدثاً نفسه: «هل تمزح؟ إنها امرأة راشدة. تناهز الثلاثين. لا بد أن تكون كذلك. هل رأيت كيف نظمت التنظيف؟ إنها ليست طفلة. أما طريقتها في النظر نحوي...».

تحركت بيسي، وأصدرت صوتاً، ثم لوحت بقبضتها الصغيرة في الهواء. تناولها بيرس، فلفّت أناملها حول إصبعه الأوسط وتعلقت به.

جلس بيرس مستقيماً بسرعة، لدرجة أن بيسي استيقظت وحملقت به، ثم ابتسمت تحت ضوء القمر، ورفعت ذراعيها ليحتضنها ويعانقها.

- تعالي!

قال بيرس ذلك مطيعاً. رمى الأغطية إلى الوراء، وقال: «دعينا نقصد الإنترنت. سوف أبحث عن مكان محدد. مكان أعلم بشأنه مسبقاً».

أخبر بيسي: «روبي تقول إنه مكان تحدث فيه المعجزات. دعينا نأمل أن تكون على حق».

٥ - صرخة لا بد منها

نامت شاني في سرير ضيق. كانت وندي وآبي تنامان على مسافة قريبة منها. عندما استفاقت، وجدت سريري الطفلتين فارغين، واستطاعت أن تسمع أصواتاً من الطابق السفلي. استلقت محدقة بالسقف، وهي تراقب أشعة الشمس المبكرة. هذا أروع منزل ريفي رأته. استطاعت أن تفهم لما أراد بيرس الحصول عليه. إنه منزل عائلي... المنزل الذي لم يحظَ به قط. لكنه لا يرغب بالارتباط. لا يريد الزواج. بدا الأمر كما لو أنه اشترى المكان فقط لكي يربي الأطفال المشردين. لا بد أن مورين أحست بالارتياح عندما وجدته. بيرس... يا له من صبي لطيف!

انقلبت على جانبها، قبل النهوض من السرير.

عانت ليلة أمس من كتف مخدوش حسب ظنها، أما الآن فهي تظن أنه كسر مصحوب بجرح. نشجت شاني، وانقلبت على ظهرها.

- آخ!

قال ذلك صوت بالقرب من الباب. نظرت شاني، فوجدت بيرس وبضعة أطفال يقفون خلفه. كان بيرس يبتسم، ولاحظت أنه حلق ذقنه. إنه يرتدي سروالاً كتانياً مع قميص قطنية تحمل صورة تمساح صغير على صدرها. بدا كما لو أنه خرج مباشرة من أحد أغلفة مجلة فوغ للأزياء.

قالت وندي من خلفه: «إنها الساعة التاسعة. بيرس قال إنه آن الأوان لنوقظك».

قال بيرس: «حددت لك موعداً مع الطبيب بعد نصف ساعة».

قال برايس:

- أحضر عامل ورشة التصليح إطاراً جديداً لسيارة أمي، لذا يمكننا أن

نذهب معك.

أضافت وندي قائلة: «إنها سيارة ذات سبعة مقاعد. ألسنا محظوظين؟».

أضافت آبي:

- لأن عددنا هو سبعة. هل ترغبين بسماعي أعدّ؟

سألها بيرس: «كيف حال ذراعك؟».

استلقت إلى الوراء، ونظرت إلى بيرس ولاحظت عبوسه. اعترفت شاني قائلة: «أشعر كأنني بحاجة إلى مسكنات للألم. مع هذا أشعر كما لو أنني تناولتها مسبقاً، فأنا أشعر بالدوار».

- هل تحتاجين إلى مساعدة لترتدي ملابسك؟

- لا.

قال بيرس آمراً: «وندي، ابقي هنا. أما البقية، اهتموا بأمر الفطور. برايس يقوم بتحميص الخبز».

ابتسم بيرس لها تلك الابتسامة التي تجعل قلبها يقارب الهرولة في وقع نبضاته. تابع يقول: «اعتني بها وندي».

أضاف كما لو أن الأمر مجرد فكرة ثانوية: «آه! رتبنا أمر الرحلة إلى الشاطئ. سوف نذهب إلى قصر عند الشاطئ. إنه قصر في خليج الدلافين. سوف نتناول الهوت دوغ اليوم، ونذهب إلى الشاطئ يوم غد».

أحست شاني كما لو أنها عالقة وسط موجة مدية كاسحة، تجرفها بزخم لا يفسح لها المجال لتتنفس. إن كتفها تؤلمها. يا إلهي! إنها تؤلمها حقاً. لقد آلمتها طيلة فترة ارتدائها لملابسها وطيلة فترة تناولها للفطور، كما آلمتها حين خرجت ماشية نحو السيارة.

أدركت شاني أن عيني بيرس مثبتتان عليها في كل خطوة من الطريق، لذا قاومت. ابتسمت لألاعيب الأطفال وحيلهم، وحاولت أن تبقى متيقظة للثرثرة التي تدور في الخلف، لكنها في السيارة رضخت للسكون السائد. لم تتكلم مجدداً إلى أن توقفوا بالسيارة أمام عيادة الطبيب. ساعد بيرس الأطفال على الخروج من السيارة، فيما سمعها تقول: «مهلاً! إلى أين أنتم ذاهبون؟».

فسّر لها برايس قائلاً: «نحن قادمون إلى عيادة الطبيب معك».

حدقت شاني بهم كما لو أنهم فقدوا عقولهم: «لابد أنكم تمزحون!».

قالت آبي، فيما قدمت يدها لشاني: «إذا أعطاك الطبيب حقنة دواء، فأنتِ بحاجة إلى من يمسك يدك».

ردت شاني متراجعة:

- سأكون بخير.

قال لها بيرس وهو يبتسم: «حسناً! أثناء ذلك سوف نحضر إطار السيارة من ورشة التصليح، ثم نقوم بالتسوق في المتجر العمومي، لكنني أريد معرفة الحقيقة بخصوص ما يقوله الطبيب».

* * *

لا مجال لأن تخبره شاني الحقيقة عما سيقوله الطبيب. بعد أن ألقى الطبيب نظرة خاطفة على ذراعها، قال لها: «إنه تمزُّق عضلي. سوف تشعرين بالألم لبضعة أيام. سوف أصف لك دواء مسكناً للآلام».

ثم بدأ يتكلم بموضوع يهمه أكثر من شاني، إذ قال: «ما الذي يفعله ذلك الغبي؟ أيسمح للمواشي أن تتجول على هواها؟ هذا الرجل مجنون».

أجفلت شاني حين سمعت نبرة الانتقاد في كلام الطبيب. قالت مرتبكة: «قطع أحدهم مزلاج القفل. إنه عمل إجرامي بل أسوأ من ذلك، لكنه ليس ذنب بيرس. بيرس يجدر به أن يطلب الشرطة».

وافق الطبيب قائلاً: «إنه إهمال إجرامي. لكن ليس السيد لاكلان هو من يجدر به أن يتصل بالشرطة، بل أنتِ. إذا كان يسمح للثيران أن ترعى من دون حواجز واقية...».

كشّر الطبيب، ثم تابع: «إنها القشة التي قصمت ظهر البعير. لن أسمح لهؤلاء الأطفال بالبقاء في خطر».

ومدّ يده متناولاً الهاتف. وضعت شاني يدها بحزم على سماعة الهاتف، فأجبرته على إعادتها إلى مكانها.

هنالك شيء فاسد يجري هنا... قالت ببطء: «اسمح لي. اطلب مني ثمن معاينة مطولة إذا أردت، لكن عليك أن تعرف أنني كمربية لأولاد بيرس، أنا

بحاجة لأن تكون صادقاً معي. أخبرني لماذا تعتقد أن بيرس ماك لاكلان هو والد سيء».

* * *

التسوق في المتجر العمومي هو أكثر الأمور التي يكرهها بيرس. المتاجر العمومية الموجودة في البلدات الريفية الصغيرة مملوءة بالريفيين الوضيعين. فكر بيرس بأن هذا ما هم عليه، فيما مرّ بالقرب من سيدة تلو الأخرى، ورحنَ يرفعن أنوفهن بشكل يدل على عدم الإعجاب.

سأل بيرس امرأة متوسطة العمر تقوم بتكديس البضائع على الرفوف: «هل يمكنك أن تخبريني أين هي لفافات الهوت دوغ؟».

ردت المرأة بكلمات مفحمة وسريعة: «في الرواق العاشر».

- إنها في الرواق الثالث.

صدمهم جميعاً سماع صوت شاني تقول ذلك. بدا صوتها صادحاً جداً لدرجة أنه أوقف الجميع في أماكنهم. كانت شاني واقفة عند نهاية الممر، وهي تمسك مكبر الصوت بيدها. دوّى صوتها وهي تقول: «يمكنني أن أرى الخبز من هنا. إن اللفافات الخاصة بالهوت دوغ موجودة في الرواق الثالث. السيدة تكذب عليك».

فتحت السيدة التي تضع البضائع على الرفوف فمها، بحيث هبط فكها حتى كاد يصل إلى كاحليها.

- هنالك الكثير من الأحداث المماثلة التي تدور هنا.

قالت شاني ذلك بشكل عابر، وما إن حاولت الفتاة الموجودة عند منضدة الخروج أن تنتزع منها مكبر الصوت، حتى هزّت شاني رأسها رافضة، ثم ابتسمت بلطف وخطت جانبياً، ما منحها رؤية واضحة لكل الأشخاص الموجودين في الأروقة المختلفة وهم كثر، إذ إن المتجر العمومي مكتظ بالناس. تكلمت شاني قائلة: «العديد منكم يعرفون بيرس ماك لاكلان، فهو اشترى مزرعة صغيرة فيها منزل ريفي رائع. بيرس هو مهندس معماري من المدينة. أنا أفترض أنه رأى المزرعة في إعلان قرأه في الجريدة، ثم عيّن موعداً مع

الوكيل، فأعجبه ما رآه، ثم اشترى المزرعة. لا مشكلة! باستثناء أنه كانت هنالك شركة تفاوض على شرائها أيضاً لإنشاء مصنع هنا، ثم اضطرت الشركة إلى بناء المصنع على موقع آخر بالقرب من البلدة التالية. ما يعني أن العديد منكم عليهم الآن أن يدفعوا أجرة نقل إضافية كي يتم توصيل إنتاجهم من الحليب إلى هناك. بيرس آسف على ذلك، لكن الذنب ليس ذنبه، فهو لم يكن يعلم. إذا كنتم تضعون اللوم عليه، فهذا غير عادل البتة. وغير إنساني أيضاً».

ساد الصمت في المتجر؛ الزبائن الموجودون مع بيرس حدّقوا به وبالأولاد، في حين حدق الآخرون بشاني. تابعت شاني كلامها قائلة: «انتقل بيرس إلى المزرعة. وبينما كان الجميع في البلدة يثرثرون ويبدون عدم رضاهم، دعا مورين لتقيم لديه. مورين هي أخت بيرس بالتبني ولديها أربعة أولاد، وكانت حاملاً بالخامس، لكنها كانت تحتضر».

حبس الموجودون في المتجر أنفاسهم. مشى مساعد المدير نحو شاني، وهو شاب في حوالى التاسعة عشرة من عمره. بدا كأنه يعرف ما عليه أن يفعله مع أي شخص يمسك عنوة بمكبر الصوت، لكن امرأة أكبر سناً منه قبضت على ذراعه، وردعته.

- دعها وشأنها، دواين.

- أمي، لا يمكنها...

- صه! أريد أن أسمع.

تجاهلت شاني قدوم دواين، وكأنه بغير أهمية، فقالت: «على أي حال. كانت مورين وأولادها يواجهون مأساة بائسة. أنا لا أطلب منكم أن تحكموا على مورين، لأن مورين ماتت منذ ثمانية أشهر».

صاح أحدهم قائلاً: «نعرف هذا».

ردت شاني قائلة: «إذاً بما أنكم تعرفون، يجدر بكم أن تخجلوا من أنفسكم. هؤلاء الأطفال... إنهم أطفال رائعون. وندي في الحادية عشرة من عمرها، وهي تحافظ على تماسك أخوتها وأخواتها. كل واحد من هؤلاء

الأطفال - وندي وبرايس ودونالد وآبي وبيسي - كل واحد بمفرده يستحق نيل ميدالية على العناية التي أولوها لوالدتهم وعلى العناية التي أولوها لبعضهم البعض، لكن بالطبع، حين كانت مورين مريضة، لم يكن هنالك من يعتني بهم. إن مصلحة رعاية شؤون الأطفال كانت تعلم بأمر احتضار مورين، وكانوا محقين في اهتمامهم وقلقهم. لكن مورين لم تشأ أن يتم التفريق بين أولادها، لذا توسلت بيرس كي يساعدها. بيرس لم يتمكن من فعل الكثير لأنه ليس والد الأطفال، لكنه يمتلك مزرعة كبيرة، ولديه قلب أكبر منها. فكر أنه لو أصبح والدهم البديل فقد يتمكن من إبقائهم سوياً، لذا تزوج من مورين».

ساد الصمت على الجميع. إذ إن السكان المحليين لم يعرفوا بالطبع هذا الجزء من القصة. طالبت شاني الجموع قائلة: «أتعتقدون حقاً أن مصلحة رعاية شؤون الأطفال قد تسمح لبيرس أن يحتفظ بالأطفال لو لم تجد أنه يهتم بهم؟».

ساد الصمت أكثر. تابعت شاني: «أنا تربيت في المدينة. والدتي تعرضت للحمى عندما كنتُ في السابعة من عمري، ثم مرضت لأشهر عديدة. أتذكر تلك الفترة تماماً. لكن أتعلمون؟ أبي وأنا لم نضطر مطلقاً لأن نطهو. إذ إن أبناء المدينة - مجتمعنا المحلي - كانوا يفاجئوننا بالقدوم إلى منزلنا حاملين أطباق الطعام، أما مدرستي فنظمت لنا جدولاً للخدمات. إن تذكر ذلك يجعلني أدمع الآن بعد مضي أكثر من عشرين سنة، وأنا أفكر بكل أولئك الأشخاص ذوي القلوب العطوفة».

تابعت شاني كلامها وهي تخفض صوتها قائلة: «أما أنتم...! هؤلاء الأطفال يرتادون مدرسة أبنائكم. كنتم تعرفون أن بيرس يواجه مشكلة. لكن جلّ ما ناله منكم التقارير تلو التقارير من قبلكم، والتي أجبرت مصلحة رعاية شؤون الأطفال أن تتفقده باستمرار».

استنشقت شاني نفساً عميقاً، وقالت: «هؤلاء الأطفال أصيبوا بمرض الجدري، والآن بيسي ما زالت تعاني منه. أعلم أنها في المتجر العمومي، في

حين أنه لا يجدر بها أن تكون هنا، لكن ليس هنالك من خيار آخر. حتى وأنا موجودة لمساعدتهم. يوم أمس سهر بيرس طيلة الليل مع الطفلة المريضة، لكنه اضطر أن يأخذ بيسي إلى الطبيب. كان مرهقاً جداً حتى إنه غفا في سيارته بانتظار تحضير وصفة الدواء. أما الأطفال فكانوا بأمان في المنزل معي، لكن تم التبليغ عنه. وصل إلى المنزل ليواجه تفقّداً آخر من قبل الشرطة. ثم قرّر أحدهم ليلة أمس أن مصلحة رعاية شؤون الأطفال لا تقوم بعملها، ذلك العمل الذي يبدو أن أحدكم هنا يريده، وهو طرد بيرس والأولاد من البلدة. لذا قرّر دفع الأمور لتتطور».

- شاني!

قال بيرس ذلك وبدأ يسير إلى الأمام، لكن وندي قبضت على قميصه، وتعلقت به قائلة: «دعها تقول الأمر أبي. هؤلاء الناس لا يعجبهم ذلك».

تابعت شاني كلامها وقد تكدّر صوتها الآن، كما لو أنها تواجه صعوبة في المتابعة: «أحدهم أطلق ثورنا في الحديقة. ليس هذا فقط، بل إنه أثار غيظه، فجرحه بمسدس يطلق حبيبات الخرز مراراً وتكراراً إلى أن صار الثور ضارياً وفاقداً للسيطرة على نفسه. أظن أن ذلك الشخص تخيل أن بيرس هو من سيخرج عندما يرى الثور في الحديقة، لكن بيرس كان في الطابق العلوي مع الطفلة المريضة بيسي التي لا تكف عن البكاء، لذا، فإن دونالد...».

دلّت شاني عليه، وتابعت: «... الطفل البالغ من العمر سبع سنوات، وهو طفل عازم ويائس لإصلاح الأمور وفعل الصواب كجميع إخوته، ذهب إلى الخارج كي يهتم بأمر الثور بنفسه».

شهق الجميع في الوقت نفسه. لكن السيدة التي كانت ترتب الرفوف أخذت تنظر إلى بيرس والأولاد بشكل مختلف. كلمت شاني الجموع الساكتة: «أنا صديقة قديمة لبيرس، وجئت لمساعدته. سمعت دونالد في الحديقة، ووصلت إليه قبل أن يهجم عليه الثور».

أشارت شاني إلى الحمّالة التي وضعها الطبيب لذراعها، وقالت: «انتهى بي الأمر بكتف مجروحة، لكنني لو لم أكن هناك...».

قال بيرس: «شاني! توقفي».

أبعد وندي جانباً، وبدأ يسير نحوها. قالت شاني وقد تمكنت أن تبتسم له: «آه! سوف أتوقف. سوف نترك هذا المكان جميعنا. نحن ذاهبون إلى البحر في إجازة. لقد طفح كيل بيرس من هذا المكان، وأنا لا ألومه. لكننا سوف نعود بعد بضعة أسابيع كي نعرض المزرعة للبيع...».

- شاني!

قالت شاني برقة: «لا يمكنك أن تحتفظ بهذه المزرعة إذا ما استمر هؤلاء الناس باعتبارك شخصاً شريراً. إن جل ما أفعله هو عرض الوقائع أمام الجميع».

توقف بيرس أمامها مباشرة، فراحت شاني تبتسم، لكن عينيها بدتا حذرتين... همست قائلة: «كان علي أن أفعل ذلك، بيرس. عندما أخبرني الطبيب بما يظنه الجميع في هذه البلدة! كدت أصفعه».

تجمدت ابتسامتها قليلاً، ثم قالت: «لكنني أيضاً كنت سأضطر إلى أن أصفع الجميع هنا، وعلى الأرجح قد ينتهي بي الأمر في السجن، وأنا أرغب بالذهاب إلى الشاطئ. هل ما زال بوسعنا أن نذهب إلى الشاطئ بيرس، أم أنك غاضب مني؟».

- كم هي سيئة إصابة كتفك يا آنسة؟

والدة دواين هي من طرحت عليها السؤال. بدت المرأة شاحبة الوجه ومرتعبة، ففكر بيرس أن هنالك بضعة وجوه شاحبة حولهم. تساءل كم هو عدد الأشخاص الذين شاركوا في المخطط بإفلات كلايد!

طمأنتها شاني قائلة: «إنها في الغالب مجرد رضوض».

- متى ستذهبون إلى الشاطئ».

- غداً.

- إذاً لن تطبخوا الطعام هذه الليلة.

قالت السيدة ذلك، ثم استدارت فجأة وانتزعت مكبر الصوت من ابنها قائلة بصوت صادح: «أنا سأعد الشوربا هذه الليلة. دورا، هل يمكنك أن

تحضري تارت التفاح الخاص بك؟».

نادى أحدهم قائلاً: «وأنا سأعد سلة كبيرة، يمكنهم أن يأخذوها معهم».

- لسنا بحاجة...

لكن والدة دواين قالت لزبائن المتجر: «أظننا نحن بحاجة إلى ذلك. أظن أن الكثيرين منا يحتاجون إلى ذلك أكثر مما تحتاجونه أنتم».

قاد بيرس السيارة إلى المنزل بصمت. جلست شاني في المقعد المجاور للسائق، أما الأطفال فحشروا أنفسهم في الخلف. لم يستطع بيرس أن يجد شيئاً ليقوله. بعد فترة قالت شاني: «أتعلم؟ بما أنك ستأخذ الأطفال إلى البحر، فأنت لست فعلاً بحاجة إلي».

- عذراً؟

- هذا القصر... سألت الطبيب عنه. بعد أن صرخت عليه صار لطيفاً معي. بحثنا عن قصر خليج الدلافين على شبكة الإنترنت. إنه ملجأ يحصل فيه الأطفال المعوزون والأشخاص الذين يعتنون بهم على إجازة. هنالك موظفون كثر يعتنون بالأطفال، فيما تنجز أنت عملك. أنا يمكنني...».

استنشقت شاني نفساً عميقاً، وقالت: «...يمكنني أن أجد مكاناً آخر لأبقى فيه... أو يمكنني أن أبقى في المزرعة لوحدي كي أرسم. كما أن على أحدهم أن يجالس كلايد».

قال دونالد من المقعد الخلفي: «لكن عليكِ أن تأتي».

طالبت آبي قائلة: «ماذا لو كانت هنالك ثيران؟ نحن نحتاج إليك كي تعتني بدونالد».

ردّ دونالد: «نعم».

- نحن حتماً بحاجة إليك، كما أنني وجدت جليساً لكلايد.

قال بيرس ذلك وهو يلقي نظرة جانبية مطولة إلى المرأة الجالسة قربه. إنها تبدو منهكة. كان يوم أمس نهاراً جهنمياً. لا بد أن هجوم الثور ترك أثره عليها، ومع ذلك فإن تصرفها في المتجر العمومي كان مذهلاً. فكر بيرس أن

روبي كانت لتقاتل هكذا، فابتسم.

- هل تراودك نكات خاصة بك؟

حاول بيرس أن يتوقف عن الابتسام. لكنها بدت صالحة جداً لدرجة أنه أراد أن يبتسم مجدداً: «إنك تذكرينني بروبي».

قالت شاني بدفء: «أنا أحب عمتي روبي».

لكنها عادت، وعبست قائلة: «لكن كف عن قول ذلك فهي قصيرة ومكتنزة».

- وأنت قصيرة ومحبية للاحتضان.

خرج كلام بيرس من فمه قبل أن يدرك ما يقوله.

قالت شاني: «أنا لا أقوم بالاحتضان والعناق».

سألتها وندي: «لم لا؟».

- كان لدي صديق تصرف كالنذل، فوعدت نفسي ألا أعانق أحداً من جديد.

تكلمت آبي بصوت رفيع قائلة: «أمي قالت لنا إن بيرس لا يجيد المعانقة. اضطررنا أن نعلمه».

- معانقة الأطفال مختلفة عن معانقة الكبار.

عرف بيرس أن كلامه بدا يائساً، لكن هذه كانت حقيقة شعوره.

تذكرت شاني شيئاً ما، فعلّقت: «روبي تقول إن كل أبنائها معوقون عاطفياً».

- يا إلهي! شكراً لك.

- لماذا اشتريت مزرعتك تلك؟

قبضت عليه شاني بسؤالها وهو غير مستعد. لم يكن لديه أي جواب. تابعت تسأله: «لم تكن تعلم بأمر مورين والأولاد قبل أن تشتريها. أليس كذلك؟».

- لا!

جعّدت شاني أنفها إلى الأعلى وهي تفكر بعمق، قائلة: «كنت تعمل في

سيدني على مشاريعك الهندسية، وقررت أنك بحاجة إلى ملجأ تهرب إليه خلال عطلات نهايات الأسبوع، فاشتريت منزلاً ريفياً فيه خمس غرف نوم وغرفتا جلوس وثلاثة حمامات وثلاثة بيوت خاصة بالكلاب... هل امتلكت يوماً أي كلب؟».

- لا.

- هاك إذاً. هل لديك الكثير من الأصدقاء والمعارف؟

تردد بيرس ثم قال: «فقط روبي».

ابتسمت شاني، وقالت: «أنت وأخوتك بالتبني تشكلون أغلى ما في العالم بالنسبة إلى روبي. بالرغم من ذلك فقد أفسدت أفعالك الجيدة بتلك الشقة».

- ما الذي تقصدينه؟

- أعني تلك الشقة الرائعة التي لا يمكنها أن تتشارك بها مع أحد. فكرة من كانت تلك الفكرة الغبية؟

أقرّ بيرس: «ليست فكرتي».

- إذاً؟

غرقت شاني إلى الخلف في كرسيها، وراودتها رغبة بأن تثني ذراعيها لولا أن إحداهما موضوعة على حمالة. بات الأمر واضحاً الآن.

- تبدين كما لو أن أسرار الكون قد انكشفت أمامك.

قالت بنبرة تنمّ عن الرضى: «بالفعل! لطالما قالت لي العمة روبي إنك فتى لطيف».

- أراهن على أنها تقول ذلك عنّا جميعاً.

نظرت شاني جانبياً إلى بيرس، وقالت: «اشتريت مزرعتك من أجل روبي».

- لم أفعل.

- حسناً! ليس على وجه الخصوص، لأنها ما كانت لتأخذها مطلقاً. لكن لو كان لديك منزل ريفي يعاني من فرط الفراغ، وعلمت روبي بوجوده،

ثم وجدت طفلاً ما في ورطة، لملأته بالأطفال. هذا ما فكرت به، إلا أن مورين وصلت أولاً، وملأته قبل أن تتمكن روبي من فعل ذلك.

- المنزل لم يكن لروبي.

لكن بيرس عرف أن كلامه لم يبدُ مقنعاً.

- لعل الفكرة كانت في لاوعيك. أخوتك كانت لديهم أفكارهم الرائعة حول شراء شقة لروبي، لكنك علمت أنها ستكرهها.

- لم أكن أعلم.

- بالطبع علمت، لكنك لم تستطع أن تكون الشخص الوحيد الذي لا يؤيد فكرة شراء الشقة لروبي. بعدئذٍ صار لديك خمسة أولاد، وعلمت أن روبي ستحبهم، وسترحب بجعلهم أحفادها. لكنك خشيت أن يعتبرك أخوتك دنيئاً وضيعاً لو تركتها تهتم بهم.

قال بيرس بيأس: «دعي روبي جانباً. أنا لا...».

- أخبرتها أن لديك طفلة واحدة. عرفت أنها لن تقوى على مقاومة القدوم لو عرفت بوجود المزيد.

- كنا نقيم عند روبي، وكنت بحاجة إلى أخي بلايك كي يساعدني في الأمور القانونية، فسمعتنا بالصدفة. عرفت روبي أنني أخفي عنها أمراً ما، لذلك قلت لها إن لدي طفلة واحدة فقط.

- أقلت لها أيضاً إنك لم تكن تريدها؟

زمجر بيرس قائلاً: «هذا ليس من شأنكِ أنتِ».

فسرت له شاني قائلة: «حسناً! لا أرغب بملاقاة المزيد من الثيران ولا المزيد من المفاجآت غير السارة، لكنك في هذه الأثناء لست بحاجة إلي في خليج الدلافين».

أصرّ بيرس قائلاً:

- بل أحتاجك.

- لماذا؟

- لأنك بحاجة إلى استراحة جيدة. أيّ غبي يمكنه أن يدرك ذلك.

قالت شاني بنعومة: «أنا مستخدمة لديك. لست شخصاً عليك أن تقلق بشأنه».

- لكن ليس لديك مكان آخر تقصدينه.

- يمكنني أن أكون زائرة لدى روبي، وأن أتعلم التطريز.

- وسوف تخبرينها كل الحقيقة عني.

أقرت شاني: «قد أفعل. لا أحد قادر على الكذب على روبي، فهي ترى الحقيقة في العيون مباشرة».

- إذاً تعالي إلى القصر. ربما يمكنك أن ترسمي.

قالت بابتهاج: «ربما يمكنني أن أفعل ذلك، فأنا بحاجة إلى إتقان رسم أرجل الأبقار».

- أدرست الفنون في الجامعة؟

قالت شاني بأسى: «نعم فعلت، لكنه لم يناسبني جيداً للحصول على مهنة. أنا أستطيع أن أناقش مدى التأثيرات التي أحدثها الفن القوطي على فناني القرن العشرين التجريديين، لكنني عاجزة عن رسم رجل بقرة. وندي رسمت واحدة أفضل مني. لعله يجدر بي أن أصبح أفضل مدبرة منزل في العالم وأن أكتفي بذلك».

استدارت إلى الخلف، وابتسمت لوندي قائلة: «لكنني سوف أجرب الرسم أولاً. إنها مسابقة. إذا ذهبت إلى البحر، سوف نرى من سيرسم الأرجل أفضل من غيره في النهاية».

قالت آبي: «سوف نرسم الأسماك عند الشاطئ».

- أرجل الأسماك إذاً.

قالت وندي وهي تقهقه: «الحوريات».

وندي تقهقه!!

بدا ذلك صوتاً مذهلاً، كاد يجعل بيرس يخرج عن مساره وهو يقود السيارة. لم يسمع وندي تقهقه منذ أن توفيت والدتها. هذه المرأة هي... نعمة من الله. إنها... فجأة وجد أنه بحاجة لأن يذكر نفسه بصرامة بالحدود

الموجودة بينهما. إنها رائعة لأجل الأطفال.

إنها جيدة للعناق! حسناً! هو لا يحب المعانقة. إنه لا يقيم العلاقات العاطفية إلا... ربما مع روبي.

غرقوا في السكون لفترة ما. بعدئذٍ استدار بيرس بالسيارة نحو الدرب المغطاة بالحصى التي تؤدي إلى المزرعة. أدرك أنه لا يريد لهذه الرحلة أن تنتهي، وهذا أمر غريب. مع ذلك، وجد هذه الرحلة القصيرة مع الأولاد الخمسة وامرأة ذات كتف جريحة، رحلة رائعة.

أخيراً، استدار بالسيارة داخل سور المزرعة برفقة مدبرة منزله المؤقتة وأطفاله الخمسة...

استيقظت شاني عند الساعة الثالثة صباحاً، وهي تشعر بألم مبرح في كتفها. إنها تحتاج إلى مسكن للألم. وصف لها الطبيب الدواء المسكن، لكنه حذّرها بأنه قد يجعلها تشعر بتشوش في ذهنها. أخذت شاني حبة من الدواء الأخف تأثيراً، وتمكنت من النوم قليلاً.

كان الظلام يسود المنزل، أما هي فتنام في غرفة نوم الفتيات. وندي وآبي كانتا تغطان في نوم عميق. أرجعت شاني الأغطية إلى الوراء بحذر، ثم أجفلت حينما آلمتها ذراعها بسبب الحركة. تلمّست طريقها نزولاً نحو المطبخ في الطابق السفلي.

كان بيرس يجلس إلى الطاولة، وقد فرش أمامه مجموعة من المخططات والرسومات. بدا كرجل يعمل لساعات طوال. كان يرتدي بيجاما من اللون الأزرق الفاتح، فيما وضع نظارتين استقرتا على أرنبة أنفه. وبدا بحاجة لأن يحلق ذقنه مجدداً. في الواقع، بدا لطيفاً جداً.

نظر بيرس إلى الأعلى، فأجفلت شاني.

- هاي. أنا من يفترض بي أن أجفل.

قالها بيرس وقد بدا متفاجئاً مثلها.

- هل أخفتك؟

- إذا كنت تقصدين بأن منظر امرأة طولها خمس أقدام وثلاثة إنشات،

ترتدي لباس نوم مطبع بالخنازير الزهرية، فيما وضعت إحدى ذراعيها بعلاّقة هو أمر كاف لإخافتي، فأنت على حق.

تمطى بيرس ممدداً جسده كالهر الكبير، ثم نهض بتكاسل واقفاً على قدميه، وقال: «أتؤلمك ذراعك؟».

- أنا... نعم.

فكرت شاني أن لباس نومها هذا يبدو سخيفاً. لقد أهداها إياه موظفو المعرض الفني، وكانت قد حشرته في زاوية من مكتبها، لكنها وضبته مع أغراضها حين عادت إلى الديار.

ابتسم بيرس ابتسامة عريضة.

- اجلسي بالقرب من النار.

استدار حول الطاولة، فسحب لها الكرسي الهزاز لتجلس عليه، وأضاف: «سأعد لك شراب الكاكاو».

قال ذلك وهو يدير لها ظهره. تابع بيرس كلامه: «لا يجدر بك أن تتناولي حبوب الدواء ومعدتك فارغة. مشروب الكاكاو الساخن مع كعك الشوكولا سوف يفيان بالغرض».

- شكراً لك، أيها الجد!

رد بيرس بجواب مفحم وسريع قائلاً: «هاي! كلانا نرتدي ملابس النوم. إذا كنت أنا الجد فأنتِ الجدّة».

يجدر بها أن تجيبه برد مفحم ما! لكن الردود التي طرأت على ذهنها بدت كلها خطيرة، لذلك خضعت شاني لما اعتبرته الصمت المحترم.

أخبرها بيرس: «يمكننا أن نذهب إلى الشاطئ يوم غد. تلقيت ما لا يقل عن خمسة اتصالات هاتفية تعرض علي الاعتناء بالقطيع في أي وقت أحتاج فيه إلى استراحة، بفضلكِ أنتِ».

ابتسم لها بدفء زائد عن الحد، فبدأت وجنتا شاني تحمرّان خجلاً. سألته: «ما الذي تعمل عليه؟».

رغبت أن تقول شيئاً ما حتى تملأ السكون. كما أنها مهتمة بالأمر في

الحقيقة، مع أن كتفها تؤلمها ألماً مبرحاً.

- إنها محطة للقطارات. أترغبين برؤيتها؟

- أنا... نعم.

أرادت شاني أن تنهض، لكن بيرس أزاح الطاولة جانبياً كي تصير بمتناولها. رفع أول مجموعة من المخططات فوضعها على ركبتيها قائلاً: «هذا هو المنظر الشامل، والبقية هي تصاميم البناء التفصيلية».

عاد بيرس إلى تحضير الكاكاو. حاولت شاني أن تركز اهتمامها على المخططات. همست: «هذا مشروع ضخم، وهو محور أساسي في العاصمة. إنها شبكة مواصلات جديدة. أظنني رأيت هذا الإعلان في لندن. ألم يجروا مسابقة لاختيار أفضل العروض؟».

- نعم، فعلوا. ونحن فزنا بتلك المسابقة.

كاد هذا الخبر يجعلها تنسى ألم كتفها. حملت شاني مخططاً تلو الآخر، وراحت تنظر إلى التفاصيل الدقيقة، فضلاً عن المخطط الرئيسي المذهل حقاً. أخيراً علّقت: «كم أنت لامع!».

- أعلم.

قال بيرس ذلك وهو يضع كوبي الكاكاو وكعك الشوكولا بالإضافة إلى حبتي دواء أمام شاني. تابع قائلاً: «... ووسيم وقوي البنية، وشديد التواضع إلى درجة لا تصدق».

غصّت شاني.

أمرها بيرس قائلاً: «تناولي حبتي الدواء».

- أمرك، سيدي.

وهذا ما فعلته.

- روبي تقول إنك لست عادية، أنت أيضاً.

- روبي تقول ألطف الأشياء.

- هذا ما تقوم به حقاً. آه! بالكلام عن روبي وأبنائها...

استدار بيرس، وبحث تحت رزمة الأوراق الموضوعة على الطاولة، ثم

تابع قائلاً: «اتصلت هاتفياً ببلايك... بلايك هو أحد أبناء روبي، وكلّمته بشأن مايك واستخدامه لبطاقتكما المصرفية المشتركة».

- مهلاً!

ما الذي يفعله بيرس؟... تابعت تقول: «لا يحق لك...».

رد بيرس بأسى قائلاً: «هذا ما قاله بلايك. ربما تصرف مايك بشكل مخالف للقانون، لكنه لايستطيع ملاحقته، ما لم تسمحي له أنتِ بمعرفة التفاصيل الخاصة بك. أرسل لي بواسطة الفاكس نموذجاً حتى تملئيه. إذا رغبتِ بالتوقيع والموافقة عليه، فسوف ينظر بالأمر».

- ليس هنالك ما يستطيع بلايك أن يفعله.

قال بيرس بتواضع: «سأخبرك أمراً، روبي تقول إننا سلالة سوف تحكم العالم».

قالت شاني: «لا فائدة من تأسيس السلالات إن لم يقم أي منكم بإنشاء عائلة».

ثم أكلت كعكة بالشوكولا، وهي تقرأ بغير تركيز النموذج، ثم وقعت عليه. قالت مقترحة: «ربما يمكنكم أن تشكلوا سلالة بالفعل، عالماً يديره أشخاص من دون أمهات».

فكرت شاني بأمها، وحملقت قائلة: «قد ينجح الأمر».

خمّن بيرس إلى أين ذهب تفكيرها، فقال: «مهلاً! والداك أجّرا منزلهما فقط».

قالت شاني بغموض: «الدي دمية في غرفة نومي، تدعى سوزي بيل. إن لعب أي ولد بسوزي بيل...».

- أترغبين بأن ننظم حملة لاستعادة سوزي بيل؟ رجال مسلحون تحت جنح الظلام، يكتسحون المكان قائلين: «لا أحد يتحرك! الدمية لنا».

ابتسمت شاني ابتسامة عريضة قائلة: «أتريد أن نحاول؟».

- سام يعمل في قوى الأمن. سوف نجعله المسؤول عنا.

- سام... أتعني سام ابن روبي؟

- قلت لك، نحن سلالة.

حملقت شاني به للحظة مطولة. فجأة شعرت بالارتباك، فأشاحت ببصرها، وحدقت بلهب النار من خلال أبواب الموقد المفتوحة. هذا أكثر أماناً بالطبع!

- يجدر بك أن تعودي إلى السرير.

قال بيرس ذلك بصوت بدا مشدوداً بعض الشيء. يجدر بها أن تفعل ذلك. لكن هذا الجو رائع، إذ إن المطبخ ما زال يعبق بالرائحة اللذيذة لطبق اللحم بالكاري الذي جاءت به والدة دواين عند العشاء. بالإضافة إلى الحلوى وبقايا تارت التفاح التي ما زالت على المنضدة بانتظار الغد. هذا المطبخ لطيف، محبب، دافئ، وهناك رجل يعمل على طاولة المطبخ لإنجاز مخططات مذهلة. إنه رجل لطيف حقاً...

- سأعود إلى السرير حالما أشعر بمفعول الدواء. عُد إلى مخططاتك.

هذا ما فعله بيرس، إذ ركز على عمله باهتمام مطلق. بعد برهة بدا كأنه نسي أمر وجودها، وهو أمر يناسبها. هكذا يمكنها مراقبته خلسة. فكرت شاني، كيف ستمضي الأسابيع القليلة المقبلة معه؟ ربما لا يجدر بها أن تذهب إلى الشاطئ. لن يحتاجها في القصر...

- سوف أحتاج إليكِ.

قال بيرس ذلك كأنه قرأ أفكارها. رمشت شاني بذهول. كان يدون الملاحظات على جانب المخطوطات، أما يده فلم تتوقف. كيف استطاع أن يعرف ما الذي تفكر به؟

- لماذا؟

- لأن دونالد يثق بكِ.

- دونالد؟!

- إنه صبي غريب. لا أظنه يثق بي. إنه يحاول أن يهتم بهم جميعاً بمفرده، وهو يحاول أن يدّعي أنهم لا يحتاجون إلي، لكن يبدو أنه تقبلك منذ البداية، لاسيما بعد أن أنقذته من الثور.

ساد صمت مطول. راحت شاني تراقب اللهب وهو يتخذ أشكالاً مختلفة، ثم قالت: «يمكنني أن أرى ثوراً هناك».

- ثور...

- نوع من الثيران... في الجحيم. إنه شيء ما... يشبه رسوم دانتي. أظنني قد أرسمه.

- ما الذي تحتويه حبوب الدواء هذه؟

- ماذا؟

ابتسم بيرس ابتسامة عريضة، ثم نهض، وانضم إليها أمام وهج النار الدافئ المحبب بالقرب من الموقد. قال لها: «حان وقت النوم».

- أرغب بالبقاء... هنا.

- لكن حان موعد نومك يا أميرة.

قال بيرس ذلك، ثم انحنى، وحمل شاني بسهولة تامة. يجدر بها أن تستاء... يجدر بها...

لفّت شاني ذراعيها حول عنق بيرس، وتعلقت به قائلة: «جميل! روبي على حق... تقول إنك الألطف بين الشبان».

- أظنك لست معتادة على تناول المسكنات. سوف تغيبين عن الوعي إن لم تخلدي إلى النوم.

راح بيرس يصعد الدرج، فتكورت شاني مستندة إليه. فكّرت بضبابية أن لباس نومه مصنوع من قماش رقيق مشابه للباس نومها ذي الخنازير الزهرية. ألقت خدها على كتفه، فأحست بالدفء.

وصلا إلى غرفة الفتيات. دفع بيرس الباب بقدمه، ففتحه، ومشى بخطوات واسعة نحو آخر سرير في الصف، وهو سريرها. وضعها على الوسائد، ثم مدّ يديه، فيما ظلت متعلقة به. حلّ أناملها بحذر من خلف عنقه، وقال: «شاني، أفلتيني».

أفلتته شاني، وهمست:

- الرجال الأرامل جذابون جداً... جداً.

– كذلك هنّ الفنانات اللواتي يرتدين لباس النوم المطبع بالخنازير الزهرية.

قال بيرس ذلك وهو يبتسم ابتسامته السحرية، تلك الابتسامة التي تدفئ قلبها.

– عمت مساء، شاني.

همست: «ألن تعانقني عناق ما قبل النوم؟».

كاد بيرس ألا يفعل. لكنه لم يقوَ على المقاومة. عرفت شاني ذلك تماماً كما تعرف أن الليل آمن، وأن الحياة جيدة، وأن هذا المنزل هو أروع منزل أقامت فيه، وهذا السرير مريح و...

عانقها بيرس. أراده أن يكون عناقاً خفيفاً كالريشة، وأن ينتهي قبل أن تعرف ذلك، لكن شاني وضعت ذراعيها حول عنقه. بدا الأمر صحيحاً جداً... للحظة أحست أنه... ملكها.

أخيراً تراجع بيرس منسحباً، ما أجبرها على الرجوع إلى الوسائد والابتعاد عنه. بعدئذٍ أخذ يتراجع نحو الباب. أخيراً ابتسم لها، لكن ابتسامته بدت ملتوية. قال: «أنتِ بحاجة إلى النوم. عمتِ مساء».

أخيراً استدار ومشى خارج الغرفة، وهو يغلق الباب خلفه.

٦ - قصر الأحلام

استغرقت الرحلة بالسيارة إلى القصر ثلاث ساعات، أما شاني فكانت تشعر بالخجل طيلة الطريق. أصرت على قيادة سيارة والدها، لأنها لم ترغب بأن تنضم إلى العصابة في سيارة مورين، وأن تجد نفسها محتجزة من دون وسيلة نقل في مكان لا تعرفه. بيرس شعر بالقلق حيال قيادتها للسيارة، وهي تعاني من آلام في كتفها، لكنها تجاهلته. اختار دونالد أن يذهب معها. وقاد بيرس شاحنة مورين، ولحقت هي به.

تلك الحبوب المسكنة جعلتها تتصرف بغباء. استرجع ذهنها مشهد العناق مراراً، أما رفيقها الصغير فلم يساعدها. أخذ يدندن أغنية قصيرة، وهو يرفض الكلام. يفترض بها أن تلحق ببيرس، لكن حتى رؤية مؤخرة سيارته جعلت رأسها يدور. لذا تراجعت متأخرة عنه، إلى أن انتهى بها الأمر في خليج الدلافين من دون أن ترى سيارته في أي مكان. استدارت حول أول منعطف خارج المدينة، فإذا به قد أوقف سيارته جانباً، وبدا قلقاً بالفعل. خففت شاني من سرعتها، فرأت القصر.

توقفت وهي تشعر بالذهول. فتح دونالد فمه على اتساعه مذهولاً أيضاً، وقال: «إنه قصر حقيقي!».

قالت شاني: «أنا أظنه مخيفاً».

وجه لها دونالد نظرة مشككة، وقال: «لا أظنه كذلك. إنه فقط كبير وله رؤوس حادة».

يقع القصر على مرتفع صخري فوق البحر، وقد ظهرت خلفه في الأفق الجبال المغطاة بالضباب البنفسجي. بُني هذا القصر من الحجارة البيضاء

اللامعة، وفيه العديد من الأبراج الصغيرة ذات الفتحات، كتلك التي تستخدم للحراسة وإطلاق النار. كما أن الأعلام ترفرف من تلك الفتحات. تصورت شاني أنها في أي لحظة الآن، سوف ترى المحاربين المزودين بالرماح قادمين كي يطردوهم من هنا.

- أين كنتِ بحق الجحيم؟

انفتح باب سيارة شاني، فيما طالبها بيرس بكلامه هذا، ما جعلها تقفز فزعاً: «لقد أخفتني!».

- وأنتِ أخفتني. لم أتخيل سوى حوادث السيارات.

- أنا فقط أقود بهدوء، لأنني أقلّ معي طفلاً في السيارة.

ثم حدقت بالقصر من جديد، وقالت: «هل رأيت هذا من قبل؟».

- ساعدت في أعمال الترميم والتجديد. أليس عظيماً؟

قالت شاني بحذر: «إنه خرافي بالفعل».

أشار بيرس إلى البرج الأعلى، وقال لدونالد: «ذاك البرج يحتوي على غرف نوم الأطفال. أترغب بالنوم في برج صغير عالٍ؟».

بلع دونالد ريقه، وقال: «مع... مع وندي والجميع؟».

- نعم.

ألقى دونالد نظرة غير واثقة نحو شاني، وقال: «ومع شاني؟».

ردّت شاني قبل أن يتمكن بيرس من الإجابة: «نعم. إنها فكرة رائعة دونالد! سأنام مع الأولاد».

- هل أنتِ خائفة؟

أغاظها بيرس بكلامه ممازحاً، وابتسم ابتسامة عريضة. علمت شاني ما الذي يقصده.

قالت شاني بقدر ما استطاعت استجماعه من عزّة النفس: «ما حصل ليلة أمس هو بسبب حبوب الدواء».

- أخبرتني بذلك خمس مرات اليوم. أترغبين بالقدوم إلى القصر؟

فكرت شاني بيأس أن عليه التوقف عن الابتسام. فهي تهوي... وها

هو قصر مجنون من القرون الوسطى يلوح أمامها، ويقول لها إنه يجدر بها أن تدع الواقع خارجاً، وأن تنغمس في الخرافة والأوهام.

تدبرت أن تقول: «انسَ ليلة الأمس، أرجوك!».

بدا كأن الفوضى تعم المكان، وصدمهم ذلك ما إن دخلوا من البوابة الأمامية للقصر. كانت هنالك ثلاث فتيات صغيرات جالسات على الدرج الأمامي، اثنتان منهما توأمان في السادسة من العمر، فيما تجلس طفلة أخرى بينهما. كان تركيز الفتيات منصباً على أقماع بوظة زهرية اللون وكبيرة جداً. قبع عند أقدامهنّ كلب غريب جداً. كثير الزغب ولونه البني متماوج مع اللون الأبيض، وهو ذو أذنين طويلتين. كان الكلب ينظر إلى الفتيات، بانتظار البوظة التي قد تسقط منهنّ خلال أي لحظة.

أوقف بيرس سيارته أولاً، ثم توقفت شاني بعده. خرجا من سيارتيهما، فلوحت لهما الفتيات بأقماع البوظة بطريقة خطيرة. قالت إحدى التوأمين: «مرحباً! هل أنت السيد ماك لاكلان؟».

أجاب بيرس: «نعم».

- سوزي قالت إنه سيكون هنالك أب لكن ليس أم.

ردّت شاني: «أنا شاني، مدبّرة المنزل. هل من أحد...؟».

- مرحباً!

جاءت امرأة مسرعة من الباب الأمامي. كانت ترتدي لباساً يغطي جسدها ملطّخاً بالتراب، فيما كانت يداها مغطاتين بالوحل. نزلت المرأة مسرعة على الدرج. بدت مشرقة الوجه، وهي تمد يديها لإلقاء التحية. قالت: «بيرس وشاني قريبة روبي. أهلاً وسهلاً».

تراجع بيرس خطوة إلى الوراء بصورة غريزية، فنظرت المرأة إلى يديها، وقالت: «آه! كان يجدر بي أن أغسل يدي. آسفة! كنت أزرع البطاطا».

مسحت المرأة يديها بثيابها. قالت: «أنا سوزي، لايدي لوغانايك. أليس هذا لقباً غريباً؟ هاميش قصد البلدة لإحضار بعض المشتريات. نحن نعاني من كارثة نوعاً ما مع اليقطين. الأرض شديدة الرطوبة، وقد ظهر

العفن على الثمار الصغيرة. العفن المبكر إلى هذه الدرجة يعني الخراب. من منكم يعاني من مرض الجدري؟».

- بيسي.

قال بيرس ذلك وهو يبدو مذهولاً، فيما أشار بيده نحو السيارة حيث جلست بيسي في مقعدها الخاص بالأطفال، وهي تحدق خارجاً باهتمام. تابع يقول: «عانت كثيراً قبل ظهور البقع، أما الآن فهي أفضل».

بدأ الأطفال يخرجون من السيارة، فقالت سوزي: «لكنكم جميعاً عانيتم من مرض الجدري. إنكم تستحقون نيل ميدالية على ما مررتم به. حسناً! أيها الأصدقاء جئتم إلى المكان الصحيح. هذا أفضل مكان في العالم للتخلص من الحكاك الذي يسببه المرض. استلقوا في الأمواج المتكسرة لساعات طويلة. هل جئتم إلى الشاطئ من قبل؟».

ردت وندي وهي تقبض بقوة على يد آبي: «لا... لا!».

خرج من جانب البوابة شاب ممشوق القامة، يرتدي ملابس العمل التي تغطي جسده بأكمله، وهو يحمل عتلة بيده. استدارت سوزي نحوه، فلوحت قائلة: «جون! القبيلة المصابة بمرض الجدري وصلت. إنهم لم يروا الشاطئ من قبل. هل نأخذهم إلى هناك على الفور؟».

ألقى جون العتلة من يده، وقال: «ممتاز!».

ثم صرخ إلى الأعلى نحو النافذة المفتوحة في أحد الأبراج قائلاً: «كريستي. القبيلة المصابة بمرض الجدري وصلت إلى هنا. نحن ذاهبون إلى الشاطئ».

صرخ صوت نسائي رداً على ذلك من نافذة مفتوحة فوقهم: «لن تذهبوا من دوننا».

ظل بيرس وشاني يحدقان ببعضهما مذهولين، في حين أن الأطفال وسوزي وجون وجودي والكلب تافي، وكريستي الحامل غادروا جميعاً إلى الشاطئ.

- بيسي لا تذهب إلى الغرباء.

قالت وندي ذلك لسوزي، إلا أن سوزي قالت: «أنا لست غريبة. أنا سوزي. أنا أم روز. بيسي، أنت تحبينني، أليس كذلك؟ جون، هل ستحمل روز؟».

نادى جون من الخلف:

- بالطبع!

بدت لكنته أميركية تماماً مثل سوزي. أردف قائلاً: «أنا والتوأمان ودونالد سنحرسكم من الخلف».

سألت شاني مذهولة: «من هي سوزي؟ أهي حقاً... لايدي؟».

- الإيرل الجديد للوغانايك، هاميش، كان مليونيراً قبل أن يرث هذا القصر. هاميش متزوج من سوزي. أما جودي فهي سكرتيرة هاميش السابقة. جون هو زوج جودي، وهو عامل اجتماعي دعياه ليأتي من أميركا كي يساعدهما على تنظيم هذا المكان. كريستي هي الشقيقة التوأم لسوزي، وهي هنا مع زوجها. كلاهما طبيبان من منطقة خليج الدلافين. التوأمان هما لهما، أي ابنتا شقيقة سوزي. أما الطفلة روز فهي ابنة سوزي.

ابتسم بيرس ابتسامة عريضة، وتابع قائلاً: «لا تنظري إلي هكذا. سوف يتضح لك الأمر أكثر في ما بعد. أنا جئت إلى هنا لأضع مخططات الترميم، ولأجل الافتتاح، لكنني ما زلت أحاول أن أربط الكلاب والأولاد مع من يخصونهم من الراشدين. إنها فوضى، لكنها فوضى رائعة».

- هذا المكان يبدو مذهلاً. لماذا لم تفكر بإحضار الأولاد إلى هنا من قبل؟

أقر بيرس قائلاً: «لأكون صادقاً معكِ... كنت شديد الانشغال، لدرجة أنني لم أفكر أبعد من أنفي منذ وصول مورين. لم أفكر بذلك إلا عندما اقترحتِ أن نذهب جميعاً إلى الشاطئ. كما أن روبي معروفة هنا. وكنت أخشى وصول الخبر إليها بخصوص الأولاد».

- ألا تمانع لو عرفت الآن؟

- سوزي تقسم أن الأمر سيبقى سرياً.

ابتلعت شاني ريقها. إنهم ليسوا بحاجة إليها، فما هو عذرها للبقاء؟

- أنا... يجدر بي أن أذهب بكل بساطة. إنكم لا تحتاجون إلي.

كان الأولاد قد رحلوا إلى الشاطئ الآن. وباتت صرخات الإعجاب مسموعة من حيث هما واقفان. تابعت شاني: «حتى أنت، بالكاد يحتاجون إليك، ذهب الأولاد من دون أي نظرة إلى الخلف».

سألها بيرس: «أتذهبين إلى منزل روبي؟ إلى التطريز؟».

- يمكنني أن أجد مكاناً ما. أنا لست بلا أصدقاء.

وصلت أصوات الأولاد إليهما قوية من فرط الحماس، فقال: «يجدر بنا أن نذهب لنرى...».

- أنت بحاجة لتذهب وترى.

قال بيرس فجأة: «كلانا بحاجة لأن نذهب ونرى. وعدتِ للتو أنك ستنامين في جناح الأطفال، ولا أراكِ تخلفين بهذا الوعد».

وضع بيرس يديه على رسغيها، وثبّتها مكانها قائلاً: «شاني! أنتِ اقترحتِ هذه الرحلة. إنها فكرتكِ، وهي فكرة مذهلة. أنا وظفتكِ كي تعتني بأولادي، وأنتِ تفعلين هذا تحديداً بإحضارهم إلى هنا. أمضيتِ وقتاً عصيباً في لندن، وكنت مصابة بالإنفلونزا، كما أن الظلال ما زالت مرتسمة تحت عينيك. أظن أنه يجدر بك أن تمضي الأسبوعين المقبلين مستلقية على الشاطئ حتى تستعيدي لونكِ. أمامكِ أسبوعان على الشاطئ. اعتادي على الأمر. والآن... هل تذكرين في أي حقيبة وضبنا أغراض السباحة الخاصة بنا؟».

- في الحقيبة الحمراء.

- ها أنتِ إذاً! أثبتت أنك مفيدة للتو. دعينا نذهب لنتضم إلى الباقين. آه، شاني...!

- ماذا؟

قال بيرس وهو يبتسم: «ذلك العناق ليلة أمس... أنا لم آخذه على محمل الجد، وأنتِ أيضاً لا يجدر بك أن تفعلي».

* * *

لا يجدر بها أن تكون هنا!

استلقت شاني في الظلام في غرفة نومها الرائعة، وحدقت بالسقف الذي ينيره ضوء القمر، متسائلة عما تفعله بحق الجحيم بإقامتها في قصر مخصص للأطفال المعوزين. يمكنها أن تذهب إلى منزل روبي، أو تخيّم على أرضية الشقة الصغيرة لدى جولز. في الواقع، إنها المرة الأولى التي ترى بوضوح حال الفوضى التي صارت عليها حياتها. إنها في الثامنة والعشرين من عمرها، وستبلغ التاسعة والعشرين خلال ثلاثة أسابيع. فقدت معرضها الفني، وخسرت شقتها، وليس معها أي مال، وليست لديها مهنة...

همست شاني لنفسها: «ولن يوظفني أحد. أنا مؤهلة للإشراف على معرض فني، مع هذا فإن المعرض الوحيد الذي امتلكته أصيب بالإفلاس. يا لها من مؤهلات!».

- شاني؟

إنه صوت أحد الأولاد. أجبرت شاني على الخروج من أفكارها. جلست مستقيمة على السرير. مدت يدها نحو المصباح المجاور للسرير. قالت وندي بصوت مرتعد: «شاني! هل أنتِ نائمة؟».

أجابت شاني، محاولة أن تبدو مبتهجة: «لا! أنا جالسة في سريري الملكي أنتظر بضعة خدام كي يلبوا طلباتي. أما الآن فأرغب بأن نتحدث معاً».

قذفت شاني الأغطية إلى الوراء، فيما غامرت وندي بالدخول إلى الغرفة. قالت شاني: «تعالي، ادخلي! المكان دافئ هنا».

لم تكن وندي بحاجة إلى أكثر من دعوة. إذ انطلقت فعلياً كالصاروخ نحو السرير، وغاصت فيه، ثم رفعت الأغطية حتى ذقنها. قالت شاني بدهشة: «هاي! أنتِ لستِ خائفة من الأشباح، أم بلى؟».

- راودني... حلم، وأنا... ظننته حقيقياً.

كانت وندي ترتجف تماماً، فاختفى خلال لحظة انغماس شاني بذاتها وأفكارها. كان يجدر بها أن تنام مع الفتيات هذه الليلة، لكن وندي وآبي اختارتا غرفة فوق رأسها تماماً، إنه برج ذو نافذتين مقوستين وضع فيه

www.rewity.com Breathless

سريران، كل سرير داخل أحد القوسين. ما إن نظرت الفتاتان إلى تلك الغرفة حتى صرختا فرحاً، ولم يكن هنالك متسع لها. أما الصبيان فاحتلا غرفة مماثلة في الناحية الأخرى من البرج. فيما غرفتا شاني وبيرس تقعان مباشرة تحت غرفتي الأولاد، لكي يتمكنا من سماع أي منهم لو نادوهما. بيرس وضع بيسي في مهد في غرفته، وقبعت شاني في غرفة رائعة. ضمت شاني الفتاة الصغيرة بملاصقة جسمها.

- هل من مشكلة؟

رفعت نظرها، فوجدت بيرس في مدخل الباب. إنه ما يزال يرتدي سروال الجينز مع الكنزة. لماذا تراه ما زال يجول في القصر ليلاً، وهو يرتدي ملابسه؟ قالت شاني: «وندي هنا».

- وندي...؟!

التصقت وندي بشاني بقدر ما أمكنها أن تفعل، وتقوقعت تحت أغطية السرير، فيما راح جسدها بأكمله يرتعد.

- إنها الكوابيس!

قالت شاني ذلك، فأجفل بيرس، وقال: «مجدداً؟».

خطا بضع خطوات داخل الغرفة، فحشرت وندي نفسها بملاصقة شاني بشدة أكبر، وصاحت: «لا...!».

توقف بيرس وكأنه صُعق، فقال: «اللعنة، وندي!».

قالت شاني بشكل آلي: «لا تلعن. هاي، وندي! إنه بيرس».

كانت الطفلة ترتعش كثيراً، لدرجة أن شاني بدأت تشعر بقلق جدي.

همست وندي: «ارحل. أنا لست بحاجة...».

تكلم بيرس من حيث هو واقف: «راودتها الكوابيس من قبل. إنها مريعة... لكنها لا تدعني أبداً أقترب منها. أخذتها إلى أخصائي في علم نفس الأطفال، لكنها ترفض التكلم عنها».

قالت شاني: «الكوابيس مروّعة».

- أعلم.

- أخبريني عن كابوسك.

طرحت شاني سؤالها على وندي وهي تعانقها، فهزّت وندي رأسها بقوة. كشّرت شاني وهي تقول لها: «أنا راودتني الكوابيس عن الضفادع. الضفادع الكبيرة الضخمة اللزجة. الضفادع تحتل العالم. مروع!».

ساد الصمت... عانقت شاني الفتاة الصغيرة بشدة، لدرجة أنها أحست بضلوعها تتصادم.

قال بيرس بتثاقل: «وندي! نحن بحاجة لأن نتكلم عن هذا. أنا أعلم أنكِ خائفة. أعلم أن الظلام يبدو موحشاً ويُشعر بالوحدة. في ما مضى، منذ زمن أنا أحسست كذلك».

قالت شاني لوندي: «الراشدون يخافون أحياناً أيضاً، أما الحل فهو التحدث عن الأمر. أنا تحدثت إلى أمي بعد أن انتابتني الكوابيس عن الضفادع، وهي أخذتني إلى حديقة الحيوانات، فتعرفنا على كل ما يتعلق بالضفادع. تعلمنا أن أكبر ضفدع في العالم هو غولياث. إنه ضخم جداً، لكنه بالرغم من ذلك لا يأكل سوى الحشرات. أخذتني أمي بعد ذلك إلى مستنقع في حديقة صديقة لنا، فجمعنا بويضات الضفادع، ثم حفر أبي بركة في الحديقة، فملأناها بكل الأشياء التي تحبها الضفادع. فقست البويضات فصارت شراغيف ثم تحولت الشراغيف إلى ضفادع. أنا أطلقت عليها أسماء مثل هوبيت وكاسيدي. وبالتالي صرت أحلم بالضفادع الحقيقية، وكوابيسي بكل بساطة... توقفت».

قال بيرس برقة: «والداك أحباك».

أجابت شاني بسرعة: «لكنهما هجرا سوزي بيل».

ثم فترت لوندي قائلة: «دميتي الجميلة. دعونا لا نتكلم عن والديّ. وندي، عمّ يدور كابوسك؟».

همست وندي: «بيرس... اذهب من هنا».

بدت الكلمات صادمة جداً. رفعت شاني نظرها نحو بيرس، فلاحظت الألم على وجهه. لا يمكن أن تكون وندي خائفة من بيرس. همست شاني:

«بيرس هو صديقنا. بيرس يحبك».

- إنه...

ألحت شاني قائلة: «ما هي الكوابيس؟».

تذمرت وندي: «الظلام».

هذا كثير جداً عليه. أخذ بيرس يتراجع خارجاً من الباب. في الواقع، بدا مذعوراً. قال بصوت قاسٍ: «سوف أدعكما. سأكون في الأعلى... بعيداً جداً حيث لن أسمعكما».

أرادت شاني أن تناديه ليعود، لكنها علمت أنه لا يجدر بها فعل ذلك. وندي ما تزال مضغوطة بقوة بملاصقة جسدها. هل استيقظت تماماً من كابوسها، أم أن بعض أثاره ما زالت باقية عليها؟ أتراها تخشى بيرس؟ هذا ليس منطقياً. آه... الاستغلال؟ هذا أمر لا يُحتمل أن تفكر به، لكن شاني استنشقت نفساً عميقاً، ثم ابتلعت ريقها، وقررت أنه يجدر بها أن تتصرف كراشدة هنا. إنها بحاجة لأن تتعامل مع الأمر وكأنها لا تعرف شيئاً، وهذا ما فعلته. قالت لوندي: «بيرس رحل. يمكنك أن تخبريني عن كوابيسك الآن».

- أنا... لا.

قررت شاني أنه آن الأوان لاستخدام بعض التسلط، فقالت: «وندي! أنا أنقذت دونالد من الثور، وسأنقذك أنتِ أيضاً مما يرعبك، لكنني بحاجة لأن أعرف ما هي كوابيسك».

ساد صمت مطول، ثم همست وندي: «مظلم».

- هنالك ضوء ليلي خافت في غرفتك. أليس منيراً بما فيه الكفاية بالنسبة إليكِ؟.

- لكن... عندما أذهب إلى النوم...

- هل تشعرين بالظلمة حين تذهبين إلى النوم؟

قالت وندي: «الخزانة...».

حبست شاني أنفاسها، ثم سألتها: «أي خزانة؟».

- إنه يضعني داخلها... إنه يكرهني، لأنني أخبر أمي لو ضرب الأطفال. أمي في السرير... إنها مريضة. وكل مرة...

بدا من الواضح أن الكابوس يمزج الماضي مع الحاضر بشكل مريع. قاطعتها شاني: «أهو بيرس؟».

- لا...!

بالكاد سُمعَ كلامها وهي تقول همساً: «الآخر...».

- رجل آخر؟

- بقينا معه فترة طويلة. أمي قالت إن علينا أن نبقى معه، لأن ليس لديها مكان آخر تقصده، لذا لم أخبرها بخصوص الخزانة. كانت تغضب حين أخبرها أنه يضرب الأولاد... أخبرت الأطفال أنه لا بأس بذلك. أنا لم أمانع... ادعيتُ أنها لعبة، لكنها لم تكن كذلك. في أحد الليالي ضرب دونالد بقوة... جعل عين دونالد تتورم، فركلته... حبسنا كلينا في الخزانة، لكن دونالد بكى بصوت مرتفع جداً، فسمعته أبي وأخبرت أمي. نهضت أمي، فصرخت وصرخت... أخبرها دونالد أنه كان دوماً يضعني في الخزانة، بالرغم من أنني طلبت منه ألا يفعل. بكت أمي طيلة الليل، وفي اليوم التالي وضعتنا جميعنا داخل السيارة، وقصدنا منزل بيرس.

فكرت شاني بيأس وهلع أنها ليست مؤهلة لتتعامل مع هذا الأمر. لكنها كل ما لدى وندي. باستثناء بيرس، الذي يتضح أن وندي تخلط في رأسها بينه وبين صديق والدتها البغيض. فكرت شاني أنها تفعل ذلك في نومها فقط، لكنه كاف لأن يجعل بيرس عاجزاً عن مساعدتها الآن.

- وندي هذه قصة مرعبة. كيف تجرأ أن يعاملك بذاك الشكل؟ كان عليكم أن تبلغوا الشرطة.

قررت شاني أنه لن يؤذيها لو أظهرت غضبها، فتابعت: «آه، وندي! كيف احتملتِ ذلك؟ كما أنه كان عليكِ أن تعتني بأطفال آخرين أيضاً».

- إنه كان... مظلماً.

- ووالدتك، ألم تعلم؟

– حاولت مرّة أن أخبرها، لكنها غضبت وخرجت من السرير فوقعت. هو أخبرها أنني كنت شقية، وأنه وضعني هناك لدقيقة فقط، لكنه وضعني هناك لساعات وساعات، وتكرر الأمر مرات عديدة. طيلة الليل أحياناً. إلى أن تكلم دونالد. أنا حاولت ألا أخبرها.

همست شاني: «آه، وندي، حبيبتي! آه، وندي! أيتها الشجاعة. أنت أكثر طفلة شجاعة عرفتها على الإطلاق. أنت تعلمين أن بيرس ليس مثل ذلك الرجل».

– أنا... أنا أعلم.

استنشقت شاني نفساً عميقاً، ثم أرجحت رجليها خارج السرير، ونهضت، فأضاءت النور العلوي. هذا الأمر بدا لها فجأة ذا أهمية فائقة. فالت: «تعلمين أنني أنقذت دونالد من الثور».

أومأت وندي، وهي غير واثقة مما تبغي شاني الوصول إليه.

– وندي! أقسم لكِ، لو حاول أي شخص آخر أن يؤذيك، فأنا سأتعامل معه تماماً مثلما تعاملت مع الثور. لا يهم من هو هذا الشخص. هل تصدقين هذا؟

وضعت شاني يدها تحت ذقن وندي، وأجبرتها أن تلاقي عينيها قائلة لها: «وندي! يجدر بك أن تصدقي هذا».

– أنا... أنا أصدق.

– إذاً، هل تخشين بيرس؟

حبست شاني أنفاسها. فكرت أنها حتماً لا يمكن أن تكون مخطئة بخصوص شخصية بيرس. لكن هذه الطفلة تثق بها.

– أرجوكِ...!

همست شاني، لكنها أجبرت وجهها على أن يبقى خالياً تماماً من أية تعابير، لا ينم عن أي شيء. همست وندي: «لا».

– لم ترغبي بدخوله الآن.

– لا...، أنا...

– أنت ماذا؟

قالت وندي بيأس: «إنها فقط الأحلام. أمي قالت إن بيرس صديق لنا، وقالت إنه يمكننا أن نثق به إلى الأبد. قالت إننا سنكون بأمان معه، ونحن كذلك، فهو لطيف وطيب. أحياناً أنا أعانقه كبقية الأطفال. لكن خلال الليل تساورني أحلام، وهو يختلط علي مع... مع الرجل الآخر».

– هل فعل بيرس أي شيء لم يعجبك؟ أي شيء على الإطلاق؟

أهذه شاني التي تطرح هذا النوع من الأسئلة؟ ما الذي تفعله بطرحها أسئلة كهذه؟ لكن عليها أن تفعل هذا. قالت وندي: «لا».

لا يمكن للطفلة أن تكذب بخصوص هذا الأمر. إنه بالغ الأهمية. لسبب ما، قررت وندي أن تسمح لشاني بنيل ثقتها، وهي سوف تصل إلى أبعد ما يمكنها.

– إذاً ليس هنالك سبب آخر يدفعك للخوف منه سوى الأحلام؟

قالت وندي بيأس: «لا يمكنني أن أتوقف عن الأحلام. أنا أحاول وأحاول، لكن الظلام يأتي».

تكلمت شاني وهي تحاول ألا تبكي: «آه، حبيبتي! إنك بأمان الآن. إنكِ بأمان مطلق. أنا أحميكِ، وبيرس يحميكِ، وكذلك يفعل كل من في هذا القصر. يوم غد سوف نذهب إلى الشاطئ لنسبح قبل الفطور».

– أنا... أنا أعلم.

أخيراً يمكنها أن تفعل شيئاً ما. قالت لها: «بعد أن تسبحي يوم غد، ما رأيك لو ذهبنا أنا وأنتِ إلى البلدة لنجد مصففة شعر ومتجراً للملابس؟».

ابتسمت شاني ابتسامة عريضة، وتابعت: «ليس هنالك ما هو أفضل من التسوّق كي يبعد عنك الكوابيس. سنقوم بأشياء جميلة... أمور خاصة بالفتيات. إنك في الحادية عشرة من عمركِ وندي ماك لاكلان. يمكنك أن تكوني طفلة، وأن تستمتعي قدر ما تشائين. لكن آن الأوان كي تحاولي لعب دور الآنسة الصغيرة».

٧ - هارب من نفسه

وقف بيرس في أعلى البرج، وهو يحدق نحو البحر الذي ينيره ضوء القمر. يجدر به أن يغرق في جمال هذا الليل. لكن عوضاً عن ذلك، جل ما استطاع التفكير به هو وجه تلك الفتاة الصغيرة المرتعب، التي تركها للتو. المخاوف! مخاوف عديدة تطاردهم جميعاً. كيف سيتمكن من مواجهة مخاوف وندي، في حين أنه لم يتمكن من مواجهة مخاوفه الخاصة بعد؟

- إنها نائمة.

جعلته كلمات شاني يستدير. جاءت شاني إلى جانبه، فوقفت على مقربة منه، حتى إنها كادت تلامسه. كانت قد لفّت جسمها ببطانية.

- أردتها أن تبقى في السرير نفسه معي، لكنها أرادت النوم مع أبي. لذا أعدتها إلى سريرها، وانتظرتها حتى غفت.

ترددت شاني، ثم قالت: «أكنت تعلم أنهم كانوا يسيئون إليها؟».

تجمّد بيرس مكانه. قال: «هل أساؤوا إليها...؟».

قاطعته شاني: «ليس كما تصورت. لكن يبدو أن آخر شريك اتخذته مورين، كان يضربها باستمرار. كان يحتجزها في الخزانة في الظلام».

قال بيرس بتثاقل: «خمّنت شيئاً من هذا القبيل».

- أحقاً؟

- أخذت الأولاد إلى أخصائي في علم نفس الأطفال بعد وفاة مورين. كانوا جميعاً مصدومين إلى حد ما. حسناً! من الطبيعي أن يكون هذا حالهم بعد وفاة والدتهم، لكن إجفال وندي كلما رفعت صوتي... رفضت أن تتكلم مع الطبيب النفساني، ولم أستطع القيام بأي شيء كي أجعلها تتكلم.

- يا له من التزام أخذته على عاتقك!

تكلم بيرس وهو يحشر يديه في جيبيه، قائلاً: «الله يعلم أنني لم أقصد أبداً أن أفعل ذلك».

- إذاً لماذا أخذتهم بعهدتك؟

قال بيرس منفجراً: «ظننت أن الأمر سيكون سهلاً. قبل وفاة مورين لم يسمحوا لي أن أفعل أي شيء. كانوا هادئين... هادئين بشكل غير اعتيادي... لا بد أن مورين أمرتهم أن يدعوني وشأني، ولا يسمحوا لي بأن أفعل أي شيء لأجلهم. بعد أن أعطيت وعدي وقمتُ بالعهد، بدأت أرى الهوة التي قفزت إليها».

- الهوّة؟

أجاب بيرس: «خططت لأن أوظف مدبرة للمنزل، ثم أعود إلى المدينة. بدا هذا أمراً سهلاً، فكرت أنه يمكنني أن آتي خلال عطلات نهاية الأسبوع، حين يتسنى لي الوقت، فأربت على رؤوسهم، وينتابني شعور جيد لإبقائهم مجتمعين، ثم أتركهم من جديد».

- لكنك وجدت أنهم بحاجة ماسة إلى شخص عطوف، وليس مجرد مدبرة للمنزل؟

- لا يمكنني أن أفي بهذا النوع من الالتزام.

- لماذا؟

- هذا ليس من شأنك.

حسناً! متى كانت الأمور التي ليست من شأنها سبباً يمنعها من التدخل؟ لم يعد بإمكانها أن تتراجع الآن.

سألته بحذر: «ألأنك كنت تعود إلى والدتك تارة، ثم تبتعد عنها تارة أخرى؟».

ظنت شاني لوهلة أن بيرس لن يجيب، إلاّ أنه هزّ كتفيه، وقال: «كنت أعود إليها كلما أقامت علاقة جديدة مع رجل ما».

- كيف كان يسير هذا الوضع؟

- أحبت أمي أن نلعب دور «العائلة السعيدة». إلا أنها أرادت أن تحصل علينا معاً: الزوج والابن أو لا شيء. لذلك، كنت أعود إلى دور التبني كلما أنهت إحدى علاقاتها العاطفية، وأعود إلى روبي إن كنت محظوظاً.

صفّرت شاني، وقالت: «يا إلهي! الطبيب النفسي يمكنه أن يعمل معك لسنوات».

أصبح وجه بيرس متجمداً، شاحباً. قال: «أنا ذاهب إلى النوم».

- هل احتجزك أحدهم يوماً في الخزانة؟

راح بيرس يحدق نحو البحر، فيما حاول ألا ينظر إلى شاني. ساد صمت ثقيل، ففكرت شاني أنها تخطت حدودها.

همست قائلة: «أنا... احتجزوني بعيداً عن سوزي بيل».

أختنق بيرس من الضحك، وجعلها ضحكه تبتسم. هذا ما هدفت شاني إليه. أقرت برقة: «إنها ليست مأساة فعلياً. كما أخبرتك من قبل أنا فتاة شقية، وسوف أتعاطى مع صدمتي بنفسي».

بعدئذٍ تلاشت ابتسامتها، وتابعت: «لكن وندي لا تستطيع أن تفعل ذلك بنفسها».

- سوف أتكلم مع جون يوم غد. إنه أخصائي مجاز في علم نفس الأطفال، ولطالما عمل مع أطفال تعرضوا للأذى.

- أود أن آخذ وندي للتسوق غداً.

رمش بيرس، وبدا مرتبكاً. سألها: «لماذا تريدين الذهاب للتسوق؟».

ترددت شاني، ثم قالت: «العلاج بالتسوق. أظن أنه وقت مناسب لكي نمنح الأطفال الاهتمام الفردي الذي يتوقون إليه. عليهم أن يتعلموا كيف يكونون مستقلين، ويتمتعون بشخصيتهم الخاصة».

- وهل سيساعد التسوق في ذلك؟

- بالطبع! يمكنك أن تسأل جون.

- أنا لست بحاجة...

- آه! إنك مكتفٍ بنفسك. حسناً! ليس بعد الآن، بما أنك تبنّيت هؤلاء

الأطفال. إن لم تكن حذراً، فسوف ينتهي بك الأمر لأن تحتاج إليهم بقدر ما يحتاجون هم إليك.

- لست أفهم ما تقصدين.

ابتسمت شاني ابتسامة عريضة، وقالت: «لا يمكن للرجل أن يسير منفرداً. حتى طرزان كانت لديه جاين».

حدقت نحو البحر، في محاولة لإيجاد بعض المسافة العاطفية بينهما، ثم قالت: «لِمَ لست تعمل؟».

- كنت أعمل. كنت في البهو حين سمعت وندي، ثم جئت إلى هنا لأفكر.

- هل أقاطعك عن التفكير؟

- نعم.

قالت شاني وهي تقهقه: «هذا جواب فظ».

- يجدر بك أن تكوني في السرير. بالكاد نمتِ ليلة أمس. أنا آسف لأن وندي أيقظتكِ.

قالت: «أنت والأطفال محتاجون جداً».

- هلا توقفتِ عن هذا؟

هزت شاني كتفيها، وابتسمت مجدداً قائلة: «أنا لست بارعة في الخروج مما لا يعنيني. هذا يبقي تفكيري بعيداً عن مشاكلي الخاصة. فضلاً عن ذلك، أنت تدفع لي حتى أعتني بالأطفال».

أجاب بيرس بكلام لاذع وسريع، فيما بدا ساخطاً: «إذاً، اعتني بالأطفال، ودعيني خارج الموضوع».

- لكنكم جميعاً خلطة واحدة. أنتم عائلة غير فعّالة.

- نحن لسنا عائلة.

بدا كلام بيرس زمجرة فعلية، فأجفلت شاني، وتراجعت خطوة إلى الوراء قائلة: «أنت لا تعني ذلك».

- نعم... لا... اللعنة، شاني! أنا لم أقصد أبداً... حسناً! الأطفال

www.rewity.com Breathless

سوف يتعافون هنا، وأنا سوف أنجز أعمالي. بعدئذٍ سوف نعمل على إيجاد مدبرة منزل لائقة.

بدأت شاني تدرك أن بيرس ما زال ذلك الولد المهشم الذي تعرفت عليه منذ ما يقارب العشرين سنة. قبل أن تدرك ما هي فاعلة، تناولت يدي بيرس بين يديها. منحها الإحساس بيديه شعوراً جيداً، فيداه كبيرتان دافئتان ومطمئنتان. فكرت وهي تشعر ببعض الارتباك أنها تطمئنه. إنها لا تأخذ منه الدفء، بل تعطيه إياه.

- لا بأس أن تحب الأطفال، فالحب ليس مخيفاً حقاً.

- أهذا ما تقوله السيدة صاحبة الدلو المملوء بالثلج؟

ضحكت شاني ضحكة مكتومة، وقالت: «أترى؟ لو لم أظن أنني وقعت في الحب، لما قمت برمي دلو الماء البارد على نذل حقير وصديقته».

- أنتِ مجنونة.

- أعلم. لكنني على الأقل لست أخشى من التجربة.

قالت شاني ذلك وهي تستجمع كرامتها قدر المستطاع، لكن هذا بدا صعباً نوعاً ما، فيما هي ترتدي لباس نوم مطبع بالخنازير الزهرية وقد صار غطاؤها حول كاحليها.

- أتقصدين تجربة الوقوع في الحب؟

قالت بنبرة واثقة: «بل تجربة الحياة».

- أتقولين لي إنني أخشى الحياة؟

حدقت شاني إلى الأعلى نحو بيرس للحظة طويلة. بدا وجهه تحت ضوء القمر غامضاً وصلباً، لكنها علمت كيف يبدو حين يبتسم. أرادته أن يبتسم مجدداً. قالت له: «تعال، ورافقنا في رحلة التسوق يوم غد».

- قد يستاء الآخرون...

- لو فسرنا لهم أن وندي تحتاج إلى بعض الرعاية الخاصة، أراهن أنهم لن يبدوا أي اعتراض.

- الرعاية الخاصة.

- أعني الرعاية الرقيقة المُحبة.

حاول بيرس سحب يديه من بين يديها، لكنها لم تفلته.

- كفّ عن القلق.

- أفلتي يدي.

إن امرأة سواها أكثر عقلانية، كانت لتنسحب منذ فترة طويلة. قالت: «أنا مهشمة أيضاً، أتذكر؟ لا مجال إطلاقاً لأن أنزلق إلى علاقة غبية أخرى، لذلك أنت بأمان، لكنك لست آمناً من الجميع بيرس. لا يمكنك أن تبقى في عزلة إلى الأبد. هذا لا يعطي إحساساً جيداً».

ابتسمت ممازحة. قالت: «إنه أمر رائع. فقط أغمض عينيك، واقفز».

وقبل أن يتمكن بيرس من التفوه بأي كلمة، وقبل أن يقوم بأي خطوة لحماية نفسه، أفلتت شاني يديه، ثم وضعت يديها على كتفيه، وجذبته نحوها، واحتضنته. أرادت أن يكون الأمر مطمئناً، وأن يكون مختلفاً عن الليلة السابقة. لعلها مجنونة لتقوم بمبادرة كهذه بعدما حصل ليلة أمس، لكنها فعلت سواء كان ذلك صائباً أم لا.

احتضنها بيرس بين ذراعيه، وبادلها العناق. إنه جنون! شاني قصدت هذه المرة أن تكون امرأة متحكمة بالموقف، فتغيظه ممازحة قليلاً، وربما تسخر منه. لكن الأمر لم يبدُ كذلك. إنها مدركة لشيء واحد فقط: الاحساس ببيرس وعناقه الدافئ. إنه مدهش... مدهش!

هذا العناق غيّر عالمها، أما الشبكة الركيكة التي حبكتها حول نفسها للسيطرة على ذاتها فقد تشتتت. ولم يعد أمامها سوى الغرق بإحساسها به والتمسك به، من دون أن ترغب بإفلاته أبداً. لكنهما على سطح برج في دار للأولاد، وفي البناء خلفهما هناك خمسة أولاد في عهدتهما. هذا الجنون يجب أن يتوقف، وهذا ما حصل.

فُتح باب في مكان ما تحتهما، ثم غمرت الأنوار سطح البرج. إنه صوت امرأة ينادي من الأسفل: «أهذا أنت بيرس؟».

انفصل بيرس وشاني عن بعضهما، كما لو أنهما مراهقان مذنبان.

تكورت البطانية حول قدمي شاني، فانحنت شاني لتسترجعها. شعرت بالارتباك والضياع، فيما جاهدت لاستعادة صورة الواقع، تاركة بيرس ليجيب من يناديهما. كانت هذه سوزي، لايدي لوغانايك. نادى بيرس بصوت بدا مرتعشاً: «مرحباً».

قالت سوزي باعتذار: «كان يجدر بي أن أخبرك. لدينا جهاز إنذار، يرن إذا ما صعد أحدهم إلى هنا».

آه، اللعنة! فكرت شاني بصمت، ثم قامت بمسح شامل للمكان بعينيها لترى إن كانت هنالك آلات تصوير.

نادى بيرس: «نحن آسفان حقاً لأننا أيقظناك».

فكرت شاني، الحمد لله إنه يستطيع التكلم، لأنها لا تظن نفسها قادرة على ذلك.

نادت سوزي: «أنتما لم توقظاني. كنت في المطبخ، أحلم بتناول مخلل نبات الشبث».

تكلمت شاني بحذر، وهي تسترق النظر من فوق الحافة قائلة: «أأنت حامل؟».

نادت سوزي بابتهاج: «آه! مرحباً، شاني. نعم، أنا حامل».

نادى صوت رجولي من داخل أبواب القصر المفتوحة: «سوزي! أين أنتِ بحق السماء؟».

- أنا هنا... في الخارج، أحمي سطوح الأبراج.

ما لبث أن خرج هاميش، لورد لوغانايك من الأبواب الخشبية الأمامية الضخمة. زمجر وهو يقبل زوجته برفق على قمة رأسها: «من هناك على سطح البرج؟».

استدار ليحدق إلى الأعلى، وهو يحمي عينيه من وهج الأنوار الكاشفة. كانت شاني وبيرس مضاءين كالتماثيل التي تزين الفتحات الجانبية للبرج. حدقت شاني ببيرس؛ إنه مشعث الشعر، مع ذلك بدا رائعاً. فجأة ضحكت ضحكة مكتومة، فوجئت هي نفسها بها.

طالبها بيرس قائلاً: «ما المضحك الآن؟».

- أفكر أننا تمثالان رائعان.

قالت شاني ذلك بصوت مرتفع بما فيه الكفاية، كي يسمعها الزوجان في الأسفل.

زمجر بيرس: «تكلمي عن نفسك».

- تمثال السيد والسيدة.

قالت شاني ذلك، وقد قررت أن المزاح هو الأسلوب الوحيد للخروج من هذا الموقف.

علّقت سوزي: «ربما أنت على حق. أفترض أن التماثيل تتجول ليلاً، حين يكون الآخرون في أسرّتهم».

سأل هاميش: «هل أنتما بخير؟».

أجاب بيرس: «نحن بخير».

- والأولاد؟

- نائمون. نحن كنا فقط... نتكلم عن الأولاد.

ردت سوزي وهي تبتسم ابتسامة عريضة: «هذا ما بدا عليه الأمر».

طالب هاميش زوجته وهو يستدير نحوها مجدداً: «إذاً لِمَ أنتِ مستيقظة؟».

- كنت أبحث عن مخلل نبات الشبث.

- مخلل نبات الشبث؟!

- لِمَ ليس لدينا مخلل نبات الشبث في مكان حفظ المأكولات؟ أو السردينَ؟ السردين المعلّب. لا يمكنني أن أجده في أي مكان.

تكلم هاميش بنبرة تنم عن الرضوخ، فقال: «هذا سوف يكون حملاً طويلاً. أتريدينني أن أوقظ بقّال خليج الدلافين الآن، فأطلب منه إيصال طلبية مستعجلة من المخلل؟».

تنهدت سوزي قائلة: «يمكنني أن أعيش من دونه الليلة، شرط أن أحصل عليه في الصباح الباكر».

- أود أن أذهب إلى البلدة غداً، لقص شعر وندي.

نادت شاني بذلك، وهي تحاول أن تتحكم بالحديث. تابعت: «يمكنني أن أحضر مخلل نبات الشبث حينها».

قالت سوزي: «سآتي معكِ».

- هاي! أنا قادم أيضاً.

قال بيرس ذلك، فخرج الحديث عن مجراه مجدداً.

لم قال ذلك؟ نظرت شاني إليه، ثم أشاحت بنظرها. بدا بيرس أكثر ارتباكاً منها.

علق هاميش: «يمكننا أن نذهب جميعاً».

- لا!

على الأقل بدا كلام اللايدي لوغانايك عازماً، إذ تابعت: «لا يمكنكَ. في الواقع... لا يمكنني أنا أيضاً، لأننا وعدنا الأولاد بتمضية اليوم بأسره على الشاطئ. يا لها من متعة أن نعلمهم كم أن الماء ممتع. و... تذكرت الآن... هنالك عجينة الأنشوفة في المطبخ. أظنها ستفي بالغرض».

قال هاميش: «فليكن الله بعوننا!».

أجابت سوزي بكلمات سريعة: «إننا نهدر الوقت. إذ بمقدوري أن أدهن الخبز المحمص بعجينة الأنشوفة في هذه اللحظة بالذات. عمتم مساءاً يا رفاق».

بعدئذٍ سحبت زوجها نحو المطبخ من دون أي كلمة أخرى، تاركة شاني وبيرس بمفردهما.

ما إن دخل الزوجان إلى القصر حتى أطفئت الأنوار الكاشفة. من الواضح أن هاميش وسوزي قررا أن الشخصين الموجودين على سطح البرج يحتاجان إلى الظلام تماماً كما الوحدة. تراجعت شاني بضع خطوات إلى الوراء. تدبرت أن تقول: «ما من داع لأن تأتي أنت إلى البلدة يوم غد. وندي وأنا سنكون بخير».

- إنها تجفل حين أكون قريباً منها.

- فقط حينما تنسى... أنك أنت.

- إذاً ربما يجدر بي أن أعمل على ذلك.

- ما أهمية ذلك، ما دمت ستتراجع وتنسحب؟

قالت شاني ذلك بحياء، وهي تحاول جاهدة ألا تفكر كم هو قريب منها، وكم تتوق إليه بشدة. لو أنه يأخذ بيديها مجدداً. كي... قالت لنفسها، لا! ثم تدبرت أن تقول: «إذا كنت فعلاً تخطط لإيجاد مدبرة للمنزل، ورؤيتهم فقط خلال عطلات نهاية الأسبوع...».

- إنه الشيء المنطقي الذي يجب أن أفعله.

- أحقاً؟

- أنا لا أرغب بالارتباط.

قال بيرس ذلك وهو يبدو مرتبكاً، فأومأت شاني. حسناً! إنها فتاة تملك عزة نفس قوية.

- وأنا كذلك.

إنه تصريح بأن ما حصل للتو بينهما كان انحرافاً عن المسار.

- أنا آسف لأنني عانقتك.

قال بيرس ذلك، ما برهن أنه يفكر مثلها تماماً. تكلمت شاني بحذر، وهي تحاول جاهدة أن تبقي صوتها طبيعياً، فقالت: «كان عناقاً جميلاً جداً، إذ لم يعانقني أحد من قبل على سطح البرج».

- أترغبين بأن نفعل ذلك مجدداً؟

مهلاً! إنه يسأل. ما الذي تراه يفكر به؟ قالت شاني: «ل... لا!».

قال بيرس برزانة: «هذا أفضل، فنحن لا نرغب بإعطاء انطباع خاطئ عن التماثيل».

- صحيح.

يجدر بها أن تستدير حول نفسها، وأن تتجه إلى الداخل. فكرت شاني بذلك، لكنها لم تقوَ على حمل قدميها لأن تستديرا. قالت: «إذاً أنت لا تنوي أبداً أن تتزوج، وأن تنجب أطفالاً؟».

أتراها فقدت عقلها بطرحها أسئلة كهذه عليه؟

- لدي خمسة أولاد.

- أنت اتخذت ذاك القرار قبل أن تجد نفسك مع خمسة أولاد.

قالت شاني ذلك وهي تلتزم بدفاعاتها متابعة بعد تردد: «الندع الأطفال. لم بالكاد تقابل روبي؟».

- أنا أزور روبي، فأنا أمر بها مرة في الشهر كي ألقي التحية عليها، أو على الأقل كنت أفعل ذلك قبل أن يصير لدي خمسة أولاد أعتني بهم بمفردي.

- هل تحب روبي؟

- أنا أدين لروبي بكل شيء.

- بالرغم من ذلك، تزوجت وتبنيت خمسة أولاد، ولم تخبرها.

- لأنها سترغب بالتورط معي.

- إذاً أنت تنقذ روبي من نفسها، كما أنك تنقذ نفسك.

قالت شاني ذلك بحذر، فهذا الاحساس العميق في داخلها راح ينمو مع مرور كل دقيقة. هذا الإحساس بأنها وقعت في حب هذا الرجل بشكل ما منذ عشرين سنة، وأنها كانت تنتظره منذ ذاك الحين. إنه شعور غبي، لكنه موجود، ما جعلها تمارس الحذر والانتباه. قالت: «لكنني بدأت أتساءل... هل تعرف أن روبي تعيش لأجل التورط. أتعلم أنها فقدت زوجها بعد مرور ثلاث سنوات فقط على زواجهما؟ كاد الأمر يقضي عليها، لكنها عوضاً عن الانغلاق على نفسها، فتحت قلبها لتستقبل كل ولد محتاج».

- مثلما فعلتُ أنا.

- أنت لم تفتح قلبك لأي شخص. أنت ما زلت تتكلم عن توظيف مدبرة منزل.

- لا يمكنني أن أتأقلم مع الأولاد بمفردي.

- أنت تريد من مدبّرة منزلك أن تتأقلم معهم بمفردها.

- لا! أنا لا أريد هذا.

- لكنك ما زلت تفكر أنه سيكون من الجميل أن تراهم خلال عطلات نهاية الأسبوع. بالرغم من ذلك ينفطر قلبك حين ترفضك وندي.

- اللعنة! شاني...

قالت شاني بحكمة: «أنت لا تعرف ما الذي تريده. اشتريت مزرعة كبيرة رائعة في الريف لأنك ظننت أن روبي ستتمكن من استعمالها لإنقاذ بضعة أطفال آخرين، وحين فكّر أخوتك بالتبني أن روبي بحاجة لأن تتقاعد وترتاح، جاريتهم، مع أن ذلك يعاكس معرفتك الفطرية، التي كانت صحيحة أصلاً».

- اللعنة! أنا كنت أفكر بالتبني المؤقت، لا بالاعتناء التام بخمسة أولاد بدوام كامل...

- روبي قد تتعامل مع هؤلاء الأولاد كأحفاد لها، بيرس. هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى جدّة.

- لن أفعل ذلك بها. أخوتي على حق. يجب أن نحميها من نفسها.

- آه، بيرس!

- من الأفضل أن تعودي إلى السرير، إن لم ترغبي بأن أعانقك من جديد.

هذا التعليق فاجأها، فقالت: «إذا بقيتُ هنا، هل ستعانقني؟».

ما قالته له للتو كان نوعاً من التحدي، ما جعل بيرس يتراجع: «أنا بحاجة لأن أعمل».

قال ذلك من دون أن يرد على سؤالها، ففكرت شاني أنها بدت غبية بطرحها هذا السؤال. قالت: «صحيح».

سألها بيرس وقد بدا فجأة غير واثق: «هل ما زلتِ ترغبين بالبقاء هنا لأسبوعين؟».

- إنها إجازة مجانية.

- أنت تعلمين أننا لا نمانع لو رغبتِ فعلاً بالإقامة لدى روبي.

- شكراً، لكنني سوف أبقى هنا.

هذا ليس تصرفاً حكيماً، لكنها متورطة سواء رغبت بذلك أم لا. لو ذهبت إلى منزل روبي، فهي سوف تمضي وقتها متسائلة عما يفعله الأطفال، وعما يفعله بيرس. منذ ثلاثة أيام كانت غارقة حتى أذنيها بالكارثة المالية والعاطفية، والآن ها هي منشغلة بخمسة أولاد معوزين ورجل معوز واحد. إنه... بيرس. بيرس المرتبط بطفولتها... بيرس الذي عانقها الآن، إلا أنه لا يريد أن يعانقها مجدداً.

قال لها بيرس: «يمكنني أن أقرضك المال».

سادت لحظة جمود، فقالت شاني: «أتريدني أن أرحل؟».

- اللعنة! شاني، أنا فقط لا أريدك أن تسيئي الفهم.

- أتعني، لأنكَ عانقتني؟

جاء الغضب لمساعدتها الآن... السخط الصافي الصرف، فتابعت قائلة: «أنا لست طفلة. إذا كنت تظن أن ذلك العناق كان شيئاً مميزاً...».

كلاهما علم أنه كذلك، لكنها لن تقر بالأمر، هي تفضل الموت على الاعتراف به. أجبرت نفسها على أن تبدو ساخرة وهي تقول: «إنك لست تتكلم عن علاقة غرامية لليلة واحدة. بل مجرد عناق».

ما زال بيرس يبدو غير واثق وهو يقول: «هذا صحيح. إنه فقط عناق وحيد».

ذكّرته شاني قائلة: «في الواقع... عناقان. لكن الأمر سيان... أنا ذاهبة إلى السرير».

تراجعت نحو الباب الزجاجي. لم يتحرك بيرس، بل قال: «عمت مساء».

ردت شاني: «عمت مساء».

حدقت بشكله للحظة أخيرة مطولة، لكن بيرس لم يتحرك. أخيراً استدارت، وذهبت إلى غرفة نومها الموجودة في البرج.

فكرت بأسى أنها منقلبة رأساً على عقب، بسبب وقوعها في حب بيرس ماك لاكلان.

٨ - مزعجة

مرّت فترة طويلة قبل أن يلجأ بيرس إلى غرفة نومه. لقد تخلّى عن النوم منذ فترة بعيدة. حصل ذلك عملياً عندما وصلت مورين طلباً لمساعدته. أما الآن، فوقف بلا حراك يحدق بالبحر، محاولاً إيجاد الأجوبة.

شاني تحرك شيئاً ما في داخله، كان قد أقسم أنه لن يتحرك مطلقاً؛ العائلة السعيدة...!

طفولته بأكملها كانت عبارة عن محاولة مطولة لتمثيل فكرة العائلة السعيدة. ذاك كان حلم والدته. ما إن كان بيرس يستقر في دار للتبني، حتى تجد والدته عشيقاً جديداً، فتقوم بجرّه خارج دار التبني، لتستهل تمثيلية جديدة اسمها العائلة السعيدة. إلا أن الأمر بالطبع كان ينتهي بكارثة على الدوام. إذ تفشل علاقة والدته خلال أسابيع أو أشهر، فهي مطلقاً لم تطُل أكثر من ذلك، وحينها كان بيرس يتعرض للهجر مجدداً، ويجد أن مكانه في دار التبني الذي كان فيه، ما عاد متوفراً لأجله، لذا عليه أن يبدأ من جديد. عليه أن يعيش مع الغرباء من جديد.

بعد أن تعرفت عليه روبي، وأقام لديها، راحت هذه الأخيرة تقيم الأرض وتقعدها حتى تستعيده بعد كل مرة تتخلص فيها منه والدته. لكن حتى روبي كانت تعجز أحياناً عن المساعدة. لم يحصل بيرس مطلقاً على عائلة سعيدة. والآن لديه خمسة أولاد في عهدته. لقد تبناهم... خمسة أولاد... وهنالك شاني. إنها فاشلة في الترويج للفن، فقد عجزت عن رسم قوائم البقرة، لكنها جعلت أولاده يبتسمون. قال بيرس لنفسه: إنها تعاني من الحرمان بسبب ما فعله بها مايك، لهذا السبب عانقتك. حسناً! لم عانقتها

أنت؟

من جهة أخرى، وندي فتحت قلبها لشاني، ولسبب ما آله ذلك. بذل بيرس قصارى جهده حتى يتقرب من هؤلاء الأطفال... حسناً! كي يقترب منهم بقدر ما يريد، لكن ها هي شاني تغوص في الأمر تماماً كما فعلت حين كانت في العاشرة من عمرها.

ما كان يجدر به أن يعانقها، فهذا العناق غيّر شيئاً ما في داخله، شيئاً أساسياً جداً ظنه لن يتغير: أن يترك نفسه لينساب مع التيار... أن يفقد السيطرة... لا! العائلات السعيدة هي سواه وليست له.

إنه يقع بغرام الأولاد الخمسة، وذاك الأمر أرعبه. اللعنة! إنه غير قادر على اتخاذ تلك الخطوة، لكن شاني...! إنه يتوق إليها بشدة، إلى درجة تكاد تسبب له الألم الجسدي. لكن لو أنه خطا تلك الخطوة، ثم خسرها... ربما لن يخسرها. ربما يمكنه أن يجازف؟

هزّ بيرس رأسه، وقد تجمعت الشكوك حوله من كل الجهات. إنها فتاة تعاني من الصدمة بسبب ما حصل معها. ربما هي تتقبل العناق دوماً على هذا النحو. لكنها شعرت بالأسف عليه منذ عشرين سنة. اللعنة! إنه لا يريد الشفقة الآن.

أخذت شكوكه تصرخ به. بدا له كما لو أن ستة وجوه تقف أمامه الآن، الأولاد وشاني، وكلها تتزاحم على قلب تعلّم في عمر مبكر أن يتصلب دفاعاً عن نفسه. إنه لا يستطيع أن يخطو تلك الخطوة الأخيرة... أن يسمح لهم بدخول قلبه، وأن يحتاجهم... أخيراً انسحب مهزوماً إلى غرفة نومه الواسعة.

بيسي كانت ما تزال نائمة. لعل جسدها الصغير أصابه الإرهاق بسبب العدوى، لذلك هي تنام لتشفى. يجدر به أن ينام هو أيضاً.

قرر بيرس أنه يجدر به أن يتخلص من شاني، فهي تتلاعب بتوازنه. لكن... شاني بحاجة إلى الراحة. إنها مفلسة، وهي تريد البقاء. استقر قليلاً حين فكر بما طلبه من بلايك، أخيه بالتبني. إنها الساعة الثالثة صباحاً. هذا

يعني أنها السادسة مساء في لندن، وبلايك موجود في لندن. المؤسسة القانونية العالمية التي يعمل لديها تملك فرعاً في كل مدينة هامة من العالم. السادسة... فكر بيرس، نعم. لا بد أن بلايك ما يزال في عمله، فأخوه مدمن على العمل، شأنه شأن بقية أبناء روبي. روبي أطلقتهم في هذه الحياة، وقد غذّاهم طموحهم ليتخطوا الجوع.

أجاب بلايك بعد الرنّة الأولى: «مرحباً، بيرس!».

بدا السرور واضحاً في نبرة أخيه، وهو يجيب من الجانب الآخر للعالم. قال بلايك: «كيف يسير السيرك الذي تديره؟».

أخبر بيرس بلايك عما فعله، بعد أن احتاج إلى خبرته القانونية، فشعر بلايك بالصدمة، وهو من كان خلف قرار بيرس بألا يطلع روبي على أكثر مما سمعته سهواً.

قال بيرس من دون اقتناع: «عظيم!».

- هل أنت في المزرعة؟

- نحن في قصر لوغانايك.

سادت لحظة سكون، ثم قال بلايك: «اللعنة، بيرس! روبي سوف تكتشف أمر وجود الأولاد».

- أقسم الجميع هنا على كتمان الأمر. فضلاً عن ذلك، هؤلاء الأشخاص لا يقابلون روبي، فهي لم تأتِ إلى هنا إلا خلال الافتتاح.

- إذا كنت تواجه المشاكل مع هؤلاء الأولاد فلن تحط حملهم على عاتق روبي.

- لن أفعل ذلك.

سمع بلايك نبرة بيرس، فتراجع قائلاً: «أنا آسف! إذاً لِمن أدين بشرف هذا الاتصال؟».

- شاني.

- شاني... أتعني ابنة شقيق روبي، مدبرة منزلك المؤقتة؟

- تلك هي. هل وصلتك نماذج التوكيل التي أرسلتها لك؟

- نعم.
- أتساءل ما الذي حصل.
سأل بلايك بحذر: «هل نحن على عجلة من أمرنا؟».
- نعم.
- لماذا؟
- إنها مفلسة. وأنا عالق معها لأنها معدمة تماماً. أريد رحيلها.
سادت لحظة سكون، ثم قال بلايك: «آه... ! ظننتك تحتاج إليها من أجل الأولاد».
- الموظفون هنا مؤهلون تماماً للقيام بالرعاية المطلوبة، وأنا لا أريدها أن تتقرّب من الأطفال أكثر.
- لماذا؟
- اللعنة، بلايك... !
- إنها جميلة، أليس كذلك؟
هل هي كذلك؟ فكر بيرس بشاني وبلباس نومها الزهري، فقال: «قليلاً. لكن ما علاقة هذا بالموضوع؟».
- لا شيء. أنا فقط أتكهن... إذاً، هل هي في القصر معك؟
- نعم.
- أتريد أن تتخلص منها؟
- نعم.
- ولا يمكنك ذلك إلا إذا كانت تملك المال؟
- هل بدأت العمل على القضية؟
- نعم فعلت.
- و...؟
قال بلايك بتكاسل: «ما زال الوقت مبكراً لنعرف، أخي. لعلك تعلق معها لبضعة أيام أخرى بعد».
ساد صمت غريب. قال بعده بلايك: «إنها حقاً تشغلك».

- لا! أنا...
تكلم بلايك ببطء: «إنك في ورطة. لقد وقعت بحب ابنة شقيق روبي».
- أنا لا أحتملها.
- لماذا؟
- إنها تحشر أنفها في أشياء لا تعنيها. أريدها أن ترحل. أنا بحاجة إلى إيجاد امرأة كفوءة في متوسط العمر، يمكنها أن تمنح هؤلاء الأولاد الرعاية التي يستحقونها.
- وشاني، أليست قادرة على ذلك.
- إنها فتاة طيبة. لكنها سوف تجعلهم يقعون في حبها، ثم تغادر مع الرجل التالي.
- أهي فتاة لعوب؟
- ليكن الله بعوننا بلايك! جاءت إلى أستراليا وهي مفلسة، ثم أتت لتعمل لدي. والآن سوف تأخذ وندي للتسوق...
- تفوتني بضعة أجزاء هنا...
- ليس هنالك ما تفوّته. إنها مزعجة، لا تتحمل المسؤولية، وأنا بحاجة إلى مساعدتك كي أتخلص منها.
- سوف أرى ما بوسعي أن أفعله. في هذه الأثناء... اعتنِ بنفسك يا أخي الصغير. شيء ما ينبؤني أنك بشكل ما قد خرجت عن طبيعتك.
- أنا لست كذلك.
- بل أنت كذلك. والآن يجدر بي أن أعود إلى عملي. أراك لاحقاً.
المشكلة في مواقد النار أنها ذات مداخن. أما مشكلة الغرف المتجاورة في البرج، فهي أنها تتشارك الحائط نفسه والمدخنة نفسها. في موقف مماثل ينتقل الصوت صعوداً في المدخنة، وفي طريق صعوده يتدبر انعطافاً إلى الغرفة المجاورة... غرفة شاني.
...إنها مزعجة، لا تتحمل المسؤولية، وأنا بحاجة إلى مساعدتك كي أتخلص منها.

جعلتها كلمات بيرس تشعر بالغثيان. أهي مزعجة، لا تتحمل المسؤولية...؟!

قالت شاني للعتمة: «إنني لست كذلك. نظفت لك منزلك وأطعمت أولادك، وتدبرت أن أبعد دونالد عن الثور. أين تجد المزعجة التي لا تتحمل المسؤولية هنا؟».

يجدر بها أن ترحل، بكل بساطة. فهي شخص غير مرغوب به. إنه يكره وجودها هنا. عانقها بيرس بغض النظر عن تفكيره المنطقي، والآن هو يكلم شخصاً غريباً ما، فيخبره أنها تتدخل بحياته.

حسناً! سوف تضع عزة نفسها جانباً، وستتصل هاتفياً بوالديها طلباً للمساعدة. جولز يمكنها أن تتحملها إلى أن يتمكن والداها من تحويل المال لها. إنها امرأة تبلغ التاسعة والعشرين من عمرها. أحست شاني وكأنها في السادسة من عمرها. تلاشى الغضب، وحل مكانه الحزن، فشهقت شاعرة بالأسى. بيرس وصفها بأنها امرأة مزعجة، غير مسؤولة، وهي التي تصورت أنها مغرمة به! ساعدها غضبها لتتماسك، لكنه تلاشى الآن. بقيت شاني تشعر... بالغباء. كانت غبية بما فيه الكفاية لكي تقع... آه! لا يمكن أن تقعي في الحب خلال ثلاثة أيام...

شهقت شاني مجدداً. لن تفرط بعزة نفسها حتى لو كانت واقعة بجنون في حب الرجل الذي يظنها مزعجة وغير مسؤولة. حسناً! سوف ترحل... لكنها وعدت وندي أن تأخذها للتسوق. قالت لنفسها، حسناً! سأفعل ذلك. بعدئذٍ سأرحل. في هذه الأثناء يجدر بها أن تنام.

تحركت بيسي وبدأت تبكي، فهمس بيرس في الظلام. سُمعت بضع أنّات أخرى، ثم تنهيدة وأصوات حركة في الغرفة المجاورة.

غمغم بيرس قائلاً: «لا تبكي يا طفلتي... صه! ستكونين بخير. لديك شقيقتان رائعتان وشقيقان رائعان... هذه عائلة كافية».

لا! إنها ليست كذلك. شعرت شاني برغبة بأن تصرخ بذلك، لكنها لم

تفعل. إنه لا يريد المعلومات التي تعطيها له. أنّت شاني، وانقلبت في السرير، ثم طمرت رأسها تحت وسادتها.

- شاني!

جعلها صوت بيرس تستقيم على الفور.

- نعم.

- هل أنتِ بخير؟

- لِم عساي لا أكون بخير؟

- سَمعتك تئنين.

- لا بد أنني أنّيت في نومي... لست أدري. كنت نائمة.

- تبدين مستيقظة تماماً.

سادت لحظة سكون، ثم قال بيرس بحذر: «أكنتِ نائمة حقاً؟».

- أترغب بتصريح قانوني أمام شهود؟

- عندما اتصلت هاتفياً... هل سمعتِ؟

- سوف أعود إلى النوم.

استلقت شاني على ظهرها، وجذبت الوسادة فوق وجهها من جديد.

ما الذي قاله عبر الهاتف؟ أتُراها سمعته؟ قالت إنها كانت نائمة. لكنه لم يصدقها...

- بـ...ا...

قالت بيسي ذلك، فحدق بيرس نزولاً نحو الطفلة بارتباك، قال: «اسمي هو بيرس».

قالت بيسي: «بـ...ا».

فقال لها بيرس: «بيرس».

تدخلت شاني من الغرفة المجاورة قائلة: «بعضنا يحاول أن ينام».

- با...

تكلم بيرس بمرارة قائلاً بنبرة مستسلمة: «حسناً! نادني ما شئتِ».

النجدة! الأمور بدأت تطبق عليه. . . أحس بيرس أنه محتجز. إنه بحاجة إلى النوم. مدت بيسي ذراعيها إلى الأعلى، كأنها تتوسله أن يحملها ويرفعها. شاني موجودة في الناحية الأخرى، وهي تصغي إلى كل صوت يصدره. قال بيرس بضجر: «حسناً، بيسي! سوف أغير لك حفاظك، ثم نحظى كلانا ببعض النوم، حتى لو كان ذلك في السرير نفسه».

سألت شاني: «هل ينصح أطباء الأطفال أن ينام الصغار في الأسرة نفسها مع والديهم؟».

- ما دمت أنت الخبيرة، يمكن لبيسي أن تنام معكِ.

قالت شاني بابتهاج: «آه! أنا لست خبيرة. أنا امرأة حرة. تماماً مثلما كنتَ أنت قبل تبنيك لخمسة أطفال».

- شاني. . . !

- سأرحل من هنا، بعد أن آخذ وندي للتسوق. لن تراني أبداً من جديد. لن تضطر إلى معانقتي مجدداً.

٩ - دعني أرحل

أقل ما يقال بخصوص المخططات المتعلقة بالأطفال داخل جدران القصر، هو أنها مرنة.

- ليس لدينا أي برنامج ثابت.

قالت سوزي ذلك، فيما جلسوا حول طاولة المطبخ الكبيرة صباح اليوم التالي. كانت سوزي تعدُّ الفطائر المحلاّة، أما الإيرل فيحضر الخبز المحمص. فيما راح تافي، الكلب الإسباني الغريب الشكل، يجول جيئة وذهاباً تحت الطاولة بانتظار فتات الطعام. نظرت سوزي إلى بيرس ثم إلى شاني، وتابعت: «أنتما تبدوان بحاجة إلى النوم».

- لسنا بحاجة إلى ذلك.

قالا ذلك في آن معاً، فابتسمت سوزي ابتسامة عريضة، وقالت: «ما من داع حقاً لحراسة الأبراج خلال الليل.

قال هاميش وهو يبتسم لزوجته: «الشيء الوحيد الذي نحتاج الحراسة لأجله هو اليقطين. كم بلغ كبر يقطينتنا الآن؟».

ردت سوزي بفخر: «محيطها ثلاث أقدام وسبعة إنشات. نحن نزرع اليقطينات التي تدخل في المنافسات».

أضافت ذلك كي يفهم الجمع المرتبك عما تتحدث. تابعت: «ألا ترغبون برؤية حقل اليقطين الخاص بي بعد الفطور؟».

قالت آبي: «أنا أرغب بالعودة إلى الشاطئ».

أعلنت سوزي قائلة: «هذا ما ستفعلينه بعد تناول الفطائر المحلاة».

- شاني وأنا ذاهبتان للتسوق.

قالت وندي ذلك بصوت أشبه بالهمس، أما شاني فسحبت نفسها خارج بؤسها، كي تبدي اهتمامها بالفتاة الجالسة في الناحية الأخرى من الطاولة. هذه الفتاة التي قامت بحماية عائلتها لفترة طويلة جداً.

استدارت شاني فقبضت على بيرس يراقب وندي. إنه يشعر مثلها بالضبط. لا تنظري! لا تظني أنك تعلمين ما الذي يفكر به هذا الرجل. إنه لا يريد أي علاقة بك. بلعت شاني ريقها، وحولت انتباهها نحو الفطائر المحلاة، ولم ترفع نظرها ثانية. لكنها علمت أنه يراقبها.

دمدمت شاني بفمها الملآن: «نعم، نحن ذاهبتان للتسوق. هل يرغب أحدكم بالقدوم؟».

قال بيرس: «أنا لدي بطاقات الاعتماد».

ابتلعت شاني فطيرتها المحلاة. لكن كتلة أخرى سدت حلقها. إنها لا تريد أن تعتمد على أموال بيرس.

تكلمت سوزي فكسرت الصمت: «التسوق هو شيء خاص بالفتيات. بيرس، تقبّل أنك سوف تقف عقبة في طريقهما. شاني، نحن لدينا حسابات مفتوحة مع كل مؤسسة موجودة في خليج الدلافين. ضعيها على حسابنا، وسوف نسوي الأمر مع بيرس لاحقاً».

سألته شاني: «ما هو الحد المسموح به؟».

قال بيرس: «لا تهتمي بالحدود. اصرفي ما تحتاجينه كي تسعدي ابنتي».

تكلم بيرس وهو ينهض ليداعب شعر وندي المشعث قائلاً: «أعني أنت يا عزيزتي. حسناً! اذهبا أنتِ وشاني وقوما بالأشياء الخاصة بالفتيات. أما نحن البقية فسوف نقصد الشاطئ».

صرخ الصبية: «هاي!».

قالت آبي بارتياب: «أنا فتاة».

قال لها بيرس: «هذا ما أنتِ عليه. ابنتي الثانية. والخيار يعود إليك. هل ترغبين بالذهاب للتسوق برفقة وندي وشاني، أم ترغبين بمساعدتنا في بناء قصر من الرمال وتعلم امتطاء لوح الطوف؟».

سألت آبي: «هل تستطيع تافي القدوم إلى الشاطئ؟».

ردت سوزي: «بالطبع!».

قالت آبي: «إذاً، أنا ذاهبة إلى الشاطئ».

فقالت سوزي برضى: «إذاً حُسم الأمر. سوف نذهب جميعنا إلى الشاطئ باستثناء وندي وشاني. بيرس أقلّهما بالسيارة إلى البلدة، ثم أحضرهما بعدما تنتهيان. نحن سوف نعتني ببيسي».

قالت شاني بحذر: «يمكنني أن أقود سيارتي الخاصة».

قال هاميش: «إذا كانت سيارة التويوتا لك... لا، لا تستطيعين».

- لم لا؟

قال هاميش باعتذار: «تركتِ النافذة مفتوحة ليلة أمس. هل توقفتِ أنت ودونالد لتناول السمك والبطاطا في طريقكما إلى هنا؟».

قالت شاني بحذر: «ربما فعلنا».

ابتسم هاميش ابتسامة عريضة وقال: «وتركتما البقايا على المقعد الخلفي؟ كل طائر نورس موجود من هنا إلى سيدني كان يستكشف سيارتك. هنالك ما يكفي من روث الطيور على المقعد الخلفي لتسميد حقل اليقطين بأكمله».

قالت سوزي: «لا تهلعي! سوف ننظفه بسرعة، لكنك في هذه الأثناء بحاجة إلى بيرس كي يقلّك».

- يمكنني أن أقود سيارة بيرس.

- أنا سوف أوصلكما.

زمجر بيرس بذلك، فابتسمت سوزي ابتسامة عريضة ونقلت نظرها من شاني إلى بيرس ثم إلى شاني من جديد، وابتسمت أكثر: «ظننت أنكما أنتما الاثنين... صديقان».

قالت شاني بصوت مشدود: «إنه رئيسي».

قالت سوزي بود: «هل هو كذلك، الآن؟ وأنا ظننت...».

قاطعت كلامها وقالت: «لكن، هاي! هذا ليس من شأني. حسناً! بيرس سيوصلكما، ثم يعود مباشرة، ليحضر لي مخلل نبات الشبث. أنا واثقة

www.rewity.com Breathless

أن طفلي بدأ يعاني من نقص كبير في مخلل نبات الشبث».

قاد بيرس السيارة إلى البلدة بصمت. بدت وندي خائفة، أما بيرس فبدا متجهماً، فيما بدت شاني مشوشة.

- هل أنت مسرور لأننا نفعل هذا؟

سألته شاني ما إن أوقف السيارة في الشارع الرئيسي لخليج الدلافين. بدت المتاجر هادئة في هذه الساعة من الصباح. قال لها بيرس: «أنا أريدكِ أن تفعلي هذا».

- لكن... ألا ترغب بأن تتسوق لها بنفسك؟

قبضت وندي بيدها على يد شاني. نظر بيرس نزولاً، ولم يقل أي شيء، لكن شاني علمت أنه لاحظ حركتها تلك، وآلمه الأمر. همست وندي: «إنها أشياء خاصة بالفتيات».

قالت شاني لوندي: «لكن بيرس سيدفع. ربما يمكنه أن يراقب، إن كان يرغب بهذا».

اشتدت القبضة على يد شاني أكثر، فقال بيرس بنبرة سطحية: «لن أراقب. حسناً! أنا مغادر لأبحث عن مخلل نبات الشبث. هل آتي لأقلّكما بعد ثلاث ساعات؟».

همست وندي: «عند موعد الغداء».

بدا لشاني أن ليس هنالك ما يمكنها أن تقوله من دون توتر، ولم تفهم سبب ذلك. قالت: «إلى اللقاء».

سارتا باتجاه المتاجر. لكن شاني أدركت أن بيرس يراقبهما حتى اختفائهما عن ناظريه.

بدا صباحهما مشرقاً. في البداية منحت مصففة الشعر في خليج الدلافين وندي قصّة شعر ساحرة، ثم اقترحت عليها إضافة مشحات لون مختلفة. بعد مرور ساعة خرجت وندي، وقد تخللت شعرها الأحمر كالنحاس مشحات من اللون الأشقر الأفتح لوناً. تأملت الفتاة صورتها في المرآة، فيما تم تجفيف

شعرها، وهمست: «أنا جميلة».

أسرّت مصففة الشعر لشاني قائلة: «اضطررت إلى إلغاء موعدَي زبونتين هذا الصباح، لكنني ما إن أرى أحد أولاد القصر يعبر من هذا الباب، حتى أترك كل شيء. البلدة بأسرها تتفهم هذا».

بعد ذلك قصدت شاني مع وندي المتاجر. بدا موقف البائعين مماثلاً؛ وندي هي إحدى أولاد القصر، وبالتالي فهي ستعامل كالأميرة. راحوا يخفضون الأسعار على الملابس بشكل سحري، ويمنحونها الأشياء الإضافية. ارتدت وندي الآن تنورة، مع قميص مكشوفة، وصندال أحمر مشرق رائع. اشترتا بعد ذلك المثلجات بطعمين مختلفين، وجلستا في الميناء بانتظار بيرس. فكرت شاني أن هذا مجتمع ساحر. حتماً يمكن للمجتمع المحيط بالمزرعة أن يكون مماثلاً له.

أوقف بيرس السيارة على مقربة منهما، فوجدت شاني نفسها تحبس أنفاسها. أما وندي فتجمّدت، فيما مدّت يدها التي تحمل بها البوظة بعيداً عنها، كي لا تسيل البوظة على ملابسها الجديدة.

راقبت شاني بيرس وهو يتقدم نحوهما، وأدركت أنها لا تتنفس. تجمد بيرس في مكانه على بعد ثلاثين قدماً. وضع يديه فوق عينيه كي يظللهما من أشعة الشمس. كما لو أنه بدا غير واثق مما يراه.

- إنها شاني، لكن... أهذه وندي؟

ضحكت وندي ضحكة مكتومة. بدت تلك الضحكة المكتومة صغيرة ومتوتّرة.

- أنت جميلة!

ابتسمت وندي، ورفرفت أهداب عينيها بحياء، ثم تحولت ابتسامتها إلى إشراقة.

- أنا فخور جداً بك.

قال لها بيرس ذلك، وهو يمشي الخطوات الأخيرة القليلة، فينظر نزولاً نحوها. لم ينظر مطلقاً إلى شاني، وهو أمر عظيم.

– هل أحمل لك البوظة؟

قالت شاني ذلك، وقد خمّنت ما سيحصل. لم تجب وندي، إلاّ أن شاني أخذتها على أي حال. حمل بيرس وندي، فرفعها إلى الأعلى، وأرجحها حول ذراعيه بسرعة جعلت وندي تزعق. إنها زعقة فتاة مبتهجة جعلت كل من شاهدهما يشرق ويبتهج. فكرت شاني أن لا علاقة لها بالأمر، فهي سوف ترحل.

أنزل بيرس وندي، وضمها بملاصقة جسمه. قالت وندي: «ذابت البوظة الخاصة بي».

نظرت شاني نزولاً نحو يدها، وقد نسيت أمر البوظة، فإذا البوظة الزرقاء والأخرى بطعم توت العليق ترشح نزولاً على يدها.

قال بيرس:

– هيا إلى مكان مميز لتناول الغداء.

– هل سنأكل السمك والبطاطا المقلية على الشاطئ؟

ردّ بيرس: «ليس اليوم. هنالك مطعم صغير رائع بالقرب من المنارة، يقدم وجبات رائعة. لكننا أولاً بحاجة لأن نجد لشاني صنبور ماء. فهي تبدو دبقة».

وجدوا صنبور ماء، ثم مشوا على طول درب الجرف نحو المنارة. مشت وندي في الوسط، وهي تمسك بإحدى يديها يد شاني، وبالأخرى يد بيرس. بدا الأمر... غريباً. كان بيرس قد حجز طاولة لهم. أخذهم النادل إلى أفضل طاولة في المطعم. المنظر الذي يطل عليه هذا المكان رائع. كدست الوسائد العديدة فوق المقاعد الخشبية، كما عمّت المكان الستائر المخططة المشرقة.

اطلعوا أولاً على قائمة الطعام المذهلة، ثم أقروا لبعضهم بأن لا مانع لديهم فعلاً من تناول السمك مع البطاطا المقلية. كانت هذه مأدبة للمأكولات البحرية، ووضعت معها تلال من البطاطا المقلية المقرمشة. أكلوا حتى ظنوا أنهم قد ينفجرون، ثم جلسوا مستندين إلى الخلف مكتفين راضين،

وراقبوا القوارب القادمة إلى الميناء والراحلة منه. فكرت شاني أن هذه هي الجنة...

– أظن أن الوقت حان لنسبح قليلاً. هذا إذا لم نكن ثقيلين جداً لنغرق إلى القعر من دون أي أثر.

قال بيرس ذلك أخيراً، إذ استولى النعاس على الأجواء.

قالت شاني: «أنا سأغادر بعد ظهر اليوم».

ساد صمت مصعوق. قال بيرس بحذر: «هل ستغادرين؟».

قالت وندي: «لا يمكنك أن تغادري. إلى... إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

– أنا ذاهبة لأزور صديقتي في سيدني.

علّق بيرس: «لم أظن أن لديك أي أصدقاء».

قالت له شاني بقدر ما استطاعت أن تستجمعه من عزة النفس: «هاي! أنا تربيت في هذا البلد».

– ليس لديك أي مال.

– لدي ما يكفيني.

ابتلعت شاني ريقها، وتابعت: «مع ذلك، إن رغبت أن تدفع لي أتعابي عن الأيام الأخيرة، فلا مانع لدي».

قالت وندي مرتعبة: «لا يمكنكِ أن تذهبي. نحن نريدك أن تبقي».

قالت شاني بأسف: «أعلم».

علمت أنه يجدر بها أن تقول ذلك وهي جالسة بينهما. إنها لا ترغب بإيذاء وندي، لكنها لا تستطيع أن تبقى هنا لفترة أطول، وتبدأ علاقة غرامية لن تستطيع الاستمرار بها... عليها أن تغادر بسرعة. لو بقيت لفترة أطول ستكون تلك أنانية من قبلها. فكرت يائسة أنها بدأت تقع بحبهم جميعاً، لكنها على وجه الخصوص تقع في حب بيرس، وبيرس لن يسمح بأن يؤدي ذلك إلى أي نهاية عاطفية. إنها بالنسبة إليه مجرد مزعجة، ويجدر بها أن ترحل من هنا.

قال بيرس، فيما لم تفارق عيناه عينيها: «أنت سمعتِ تلك المكالمة الهاتفية ليلة أمس!».

ردت شاني وهي ترفع ذقنها: «نعم».

- شاني... أنا لم أعنِ ذلك.

- لا، لكنه صحيح. وجودي لا ضرورة له.

استنشقت شاني نفساً عميقاً. يجدر بها أن تفعل هذا. يجدر بها أن تكون قوية. قالت: «بيرس! أود أن أطلع روبي على أمر الأطفال».

- لا يمكنكِ.

قالت: «أعلم أنك لا ترغب بإزعاجها، لكن صدقني! كلما أخفيت الأمر عنها، كلما تأذت أكثر. تأذت للتو لأنك تزوجت، وأنجبت بيسي من دون أن تخبرها. لن تتمكن من إخفاء الأمور عنها لفترة أطول».

وجهت انتباهها لوندي، وقالت: «تعلمين أنكم بحاجة إلى مدبرة منزل لائقة، لا لامرأة مثلي لا تعرف شيئاً عما يحتاجه الأطفال. بيرس لديه والدة لطيفة اسمها روبي، وهي بحاجة لأن تلقاكم جميعاً. روبي سوف تبدأ بالاعتناء بكم خلال دقيقة، فتجد لكم مدبرة للمنزل، وسوف تتمكنون من متابعة حياتكم بسهولة».

بدا بيرس مرتعباً: «شاني، لا يمكنكِ...».

- يمكنني أن أخبرها. قل لأخوتك إنني فعلت هذا. آسفة بيرس، لكنني ابنة شقيقة روبي. بعض الأسرار لا يمكن كتمانها في العائلات، وهذا أحدها.

- لا يحق لك...

- لعلة لا يحق لي، لكنني سوف أفعل ذلك في جميع الأحوال.

نهضت شاني وهي تحس بالارتعاش. علمت أنه يجدر بها أن تفعل هذا، لأن الأمر سيغدو أصعب إن تركته لفترة أطول.

- وندي، أنا صديقتكِ.

قالت شاني ذلك وهي تنظر إلى الوجه الصغير المصدوم. إذا كانت تؤذي وندي الآن، فإنها ستؤذيها أكثر إن لم تكن صادقة! تابعت قائلة: «عندما تغادرون القصر سوف آتي إلى المزرعة لأراكم جميعاً. أعدك. سوف آتي

لرؤيتكم كلما سنحت لي الفرصة. وسوف أراسلك وندي».

تذمرت وندي قائلة: «ليس الأمر مشابهاً».

قالت شاني بنعومة: «لا، لكنني كنت مدبرة المنزل المؤقتة. انتهى عملي هنا».

تمت رحلة العودة إلى القصر بصمت. إذ حدّقت شاني أمامها مباشرة، بعد أن أصرّت أن تجلس وندي في المقعد الأمامي مع بيرس. لا بد أنها سببت الأذى لوندي. هذه الفكرة مزّقت قلبها، لكنها نظرت إلى كتفي بيرس الصلبتين، وفكرت، ما عساها تفعل غير هذا؟ يجدر بها أن تبتعد من هنا.

أوقف بيرس السيارة في الباحة الأمامية للقصر، وجلسوا للحظة، كما لو أن كلاً منهم يتردد في الخروج.

قالت شاني بلطف لوندي: «لابد أنهم ينتظرونك على الشاطئ. أليسوا كذلك بيرس؟».

قال بيرس: «كانوا يخططون لتناول الغداء على الشاطئ عندما غادرت. نصبوا خيمة، وبدوا كأنهم سيبقون هناك للشهر التالي بأكمله».

- إذن عليك أن تحضري لباس السباحة، وأن تنضمي إليهم.

همست وندي: «أنا أريدكِ أن تأتي».

- لا أستطيع.

قال بيرس: «تعنين أنك لا تريدين».

ردت شاني بكلمات لاذعة: «أنت تعرف حق المعرفة لماذا أفعل هذا، فلا تصعب علي الأمر أكثر».

لم يجبها بيرس. لاحظت شاني أن يديه تقبضان على المقود بقوة شديدة. أخيراً قال: «حسناً! وندي دعينا نحضر ملابس السباحة».

- لكن...

قال بيرس بخشونة: «يجدر بنا أن نتعلم أن نبقى معاً، أما شاني فليست جزءاً من عائلتنا».

آه! هذا مؤلم. لكن كلامه صحيح.

قالت شاني: «وندي، أنا أحبكم كثيراً. سوف أنزل إلى الشاطئ لأودعكم».

نزلت شاني من السيارة، وأسرعت إلى القصر قبل أن يقولا أي شيء آخر.

* * *

فتحت شاني حقيبتها، وحدقت بالغرفة. حاولت أن تتصور من أين عساها تبدأ. اللعنة! إنها تبكي. هي لا تبكي أبداً... إلا أنها نشجت كالأطفال. واستجمعت ذاتها قليلاً، ثم مشت نحو الحمام.

بدت الملكة فكتوريا مذهولة. قالت شاني للملكة: «نعم، انفطر قلبي بسبب خمسة أولاد ورجل لم أعرفه إلا منذ أيام».

تابعت وهي تنشق بقوة: «ظننت أنني لن أقع في الحب بهذه السرعة، لكنني كنت مخطئة».

- شاني!

تجمّدت شاني في مكانها. إنه صوت بيرس ينادي من أسفل الدرج. صاح مجدداً: «أين أنتِ بحق الجحيم؟».

- إنني أكلم فيكي.

سادت لحظة من الصمت، تلاه وقع خطوات بيرس على الدرج. كان باب الحمام مقفلاً، لذلك فهي بأمان.

نادى بيرس: «اخرجي!».

- لم لست على الشاطئ؟

- أنزلت وندي إلى الشاطئ، ثم عدت. شاني! أنا آسف لأنك سمعتِ ذاك الحديث ليلة أمس.

- وأنا أيضاً.

ردت شاني ذلك بكلمات لاذعة وسريعة، ثم فتحت الباب بسرعة، ظانة أن غضبها سوف يحميها، ويمنحها على الأقل مجالاً لأن تخرج من الحمام نحو خصوصية غرفة نومها. لكن حالما رأته...

- هل كنتِ تبكين؟

قال بيرس ذلك، وهو يضع يديه على كتفيها.

قالت شاني بقدر ما استطاعت أن تستجمع من عزة النفس: «أنا أعاني من الحساسية. أنا أتحسس تجاه بعض أنواع النباتات».

- لا أريدك أن ترحلي.

استنشقت شاني نفساً عميقاً، وقالت: «يجدر بي أن أرحل. إنني أقع بحب... الأولاد».

تردد بيرس ثم قال: «وندي انفطر قلبها».

- لم يمضِ على وجودي معها أكثر من أسبوع. أنا مجرد صديقة. سوف أتخطى الأمر.

تمهلت شاني، ثم صحّحت: «أعني أنها ستتخطى الأمر».

- إذاً، ينتابكِ الشعور نفسه!

ردت شاني بكلمات لاذعة وسريعة: «تجاه الأولاد، نعم. إنهم مذهلون، وأنت فعلاً محظوظ».

- محظوظ؟

- إلاّ أنك لا ترى ذلك.

- أنا فقط أعلم أن الأطفال يعتقدون أنك رائعة.

- إذاً تريدني أن أبقى حتى تتمكن أنت من التفرّج أكثر كالمشاهد. لا أظن ذلك.

- ليس فقط بسبب الأولاد.

حبست شاني أنفاسها.

- اسمعي، شاني! أنا... لست أدري...

حشر بيرس يديه بعمق في جيبيه، وأردف قائلاً: «... إنك تعدين كعكاً رائعاً بالشوكولا».

إنه عاجز عن رؤية ما هو أمام عينيه مباشرة، وهو أنها أخذت تقع في حبه بشكل ميؤوس منه، وكل دقيقة تمضيها معه تجعلها أكثر بؤساً. قالت

شاني برقة: «بيرس، أنا لستُ مدبرة للمنزل. استخدمتك كمكان للتوقف، والآن انتهى الأمر الطارئ».

- هل انتهى حقاً؟

فقالت: «نعم، إذ إنني استجمعت نفسي. لذا سأعود إلى عالمي، وسأدعك لتعود إلى عالمك».

- ما زلتُ لا أريدكِ أن تخبري روبي.

حسناً! لا بأس بذلك بالنسبة إليها، لو كان هذا كل ما في الأمر.

قالت شاني: «لا يمكنك أن توقفني. لن أكون مشاركة في إيذاء عمتي روبي. أنت سببت لها الأذى بعدم إخبارها عن الأطفال. هي تعلم أنني كنتُ معك، وسوف تستجوبني. لن أكذب عليها».

- فقط لا تقتربي منها.

- أتريدني أن أتجنب عمتي روبي الودودة، كما فعلت أنت خلال السنة الماضية؟ أنا أحب روبي. لا بد أن يكون عقلك متحجراً كي تقترح علي أمراً مماثلاً.

- سوف تسبب لي وقتاً عصيباً.

ضحكت شاني ضحكة مكتومة على الرغم من قلبها المفطور. قالت: «نعم، سوف تفعل».

- شاني، لا ترحلي!

ابتسم بيرس تلك الابتسامة الودودة، التي تجعل قلبها يتخبط في مكانه. ها هو بيرس الذي وقعت بحبه...

قالت شاني: «لا».

حدق بيرس بها بذهول، وقال: «اللعنة، شاني! لست أفهم».

قالت شاني بحزن: «ولا أنا. أنا فقط أعلم أن لا خيار لدي. سوف أنزل إلى الشاطئ لأودعهم، ثم أغادر. أرجوك بيرس، لا تمنعني. أنا بكل بساطة يجب أن... أغادر».

١٠ - الوداع ما قبل الأخير

فرشت شاني وجولز الأرضية بالوسادات، مع ذلك ظلت أرضية منزل جولز تفتقر إلى شيء محدد. طمأنت شاني صديقتها قائلة: «هذا سيدوم فقط حتى يصير والداي ضمن نطاق الهاتف. إنهما ما ينفكان يتجولان في وسط المجهول».

- إذاً دعيني أقرضك بعض المال.

ردت شاني مرتعبة: «لا».

بيرس عرض عليها قرضاً مالياً أيضاً. لكنها رفضت. ما زال معها ما يكفي من المال ليطعمها بضعة أيام بعد. كانت قد زارت الوكالة الخاصة بإيجاد الوظائف، فقالوا لها: «نحن لا نتلقى الكثير من الاتصالات التي تطلب المروجين للفن يا عزيزتي، لكن إذا فكرت بأن تصيري نادلة، فهناك وظيفتان جديدتان الأسبوع القادم».

بعد ظهر اليوم الخامس استلقت شاني بين وسائد جولز، بانتظار أن تشغر وظيفة النادلة، أو أن يأتي والداها من تلك الجبال. حاولت جاهدة ألاّ تفكر كم أن بيرس والأولاد يمضون وقتاً ممتعاً في القصر، لكنها فشلت في ذلك. قرع جرس الباب، فلم ترغب بأن تفتحه، إلاّ أنها أعادت التفكير بالأمر. إن الصديق الحميم لجولز رجل رومنسي يحل الجدالات بينهما بالورود، لذا كانت هنالك ورود موضوعة في أرجاء الشقة. إن أفضل ما يمكنها أن تفعله لصديقتها هو استلام ورودها. توجهت شاني نحو الباب، ففتحت الباب بسرعة.

إنه بيرس...!

- ظننتك الورود.

قالت شاني ذلك بذهول، وفكرت أنه يبدو ساحراً، فهو يرتدي سروال جينز باهتاً مع قميص مفتوحة عند العنق. أما شعره فسقطت خصلاته فوق عينه، وقد لذعته الشمس قليلاً.

سألها: «الورود؟».

أجفلت شاني قائلة: «إنها ما تنفك تصل إلى هنا».

- هل أبحث عن بعض الورود فأحضرها وأعود؟

- لا تكن سخيفاً!

تمهل بيرس وهو يتأمل مظهر شاني؛ قدمان حافيتان، لباس النوم المغطى برسوم الخنازير، أما شعرها فلا يبدو أنها مشطته جيداً اليوم. لم تكن شاني واثقة تماماً من أن الشوكولا التي كانت تأكلها لم تترك أثراً ما على وجهها.

قال بيرس: «إنك تشبهين الآنسة هافيرشام».

- الآنسة هافيرشام؟

- إنها عروس ديكنز التي تجلس في ملابس زفافها الأنيقة إلى الأبد، وهي تراقب الفئران تنخر آخر بقايا قالب حلوى العرس.

- أنا أرتدي لباس النوم، وأشاهد مسلسل دالاس.

نظر بيرس من فوق كتفها إلى كومة الوسائد الموضوعة على الأرض، وغلافات الشوكولا والورود الذابلة. طالبته شاني قبل تطور الأمور أكثر، قائلة: «ما الذي تريده؟».

ابتسم بيرس قائلاً: «لدي أخبار جيدة».

لا يجدر به أن يبتسم. سألته: «هل الأولاد سعداء؟».

بدا بيرس متردداً وهو يقول: «نعم... أظن أنهم يمضون وقتاً رائعاً في القصر. اختفت آثار الجدري عن بيسي. الأولاد يعيشون على الشاطئ. آه! كريستي أنجبت طفلاً ليلة أمس. أسمياه أنغوس».

ابتلعت شاني ريقها. ساورها شعور بأنه يتكلم فقط لأجل الكلام، فقالت له: «لِم... لِم لست هناك؟».

- أنا عنصر زائد. الأولاد سعداء هناك، وأنا اضطررت إلى القدوم كي أحضر اجتماعاً في البلدة، وسوف أعود هذه الليلة».

- همم!

سألها بيرس بحذر: «أنت لست محبطة، أم... أنك كذلك؟».

- لا.

سادت لحظة أخرى من الصمت الثقيل، قبل أن يقول: «جئت لأكلمك بخصوص مايك».

- مايك...؟

- هنالك أخبار من بلايك.

- بلايك...؟

قال لها بيرس: «كفي عن التكلم كالببغاء».

تمكنت شاني أن ترسم ابتسامة: «صحيح، مايك وبلايك، ما علاقتهما بي؟».

- بلايك استعاد لك مالكِ.

لم تكرر شاني ذلك... لم تقدر.

كان بيرس يستند إلى إطار الباب، وهو يبدو جذاباً جداً لدرجة كادت تجعلها تذوب.

- كانت لديك بطاقة اعتماد مصرفية مخصصة لكي تدفعي للفنانين الذين يعملون لك. رصيد بطاقتك المصرفية كان ضخماً، فكنت تشترين وتبيعين على الفور، وهذا أمر جيد. أينما استفسر بلايك عنك، كان يحظى بالقصة نفسها: إنك لامعة، وسمعتك المهنية رائعة!

وجدت نفسها تحمرّ خجلاً، فهي أعطت مايك نسخة عن بطاقة اعتمادها المصرفية، وجعلته شريكاً. تابع بيرس يقول: «بلايك استخدم النماذج التي وقّعتِ عليها بالموافقة، ليتتبع مكان ذهاب الأموال. لو أن مايك استخدم المال في النادي الليلي، لخسرتِ كل شيء، لكنه لم يفعل. كل ما فعله هو شراء اللوحات... ثلاث لوحات، كل واحدة منها تساوي ثروة».

- إذاً...؟

- لقد استعدناها.

قال لها بيرس ذلك، دون أن يزعج نفسه في إخفاء ابتهاجه.

- استعدناها؟!

- إنك تقومين بتقليدي كالببغاء مجدداً.

- هلاّ توقفت عن هذا؟

اختنقت شاني بضحكة مفاجئة، أما بيرس فبدا كأنه مصعوق.

- ماذا؟

- لا شيء... أخبرني عن اللوحات.

قال بيرس باذلاً مجهوداً واضحاً: «أنت صرّحتِ في تلك النماذج التي أرسلتها لبلايك أن شراكتك مع مايك انتهت يوم رميت عليه دلو المياه المثلجة، لذا تمكن من إلغاء البطاقة المصرفية، مدّعياً أن مايك لم يعد لديه الحق باستخدام تلك البطاقة، وهكذا فإن ما اشتراه بواسطتها ليس ملكاً له. استحصل بلايك على إنذار يخوله الحصول على اللوحات. سوف تباع اللوحات، ويستخدم ثمنها لتسديد ديون بطاقة الاعتماد المصرفية، وسوف يبقى لك الكثير. قد تضطرين من الناحية القانونية إلى اقتسام الأرباح مع مايك، لكن السجلات تثبت أنك كنتِ تدفعين له راتباً، وبالتالي قد تصبح الأرباح بأكملها لك وحدك».

- آه، بيرس...! آه...!

قالت: «إنه بارع... بلايك».

- إنه كذلك.

قال بيرس: «على أي حال، هذا ما أردت أن أخبركِ إياه. سأذهب الآن».

أرادت شاني أن ترمي ذراعيها حول عنقه. اللعنة...! رمت ذراعيها فعلاً حول عنق بيرس. أطلقت العنان لنفسها للحظة واحدة رائعة، فألقت وجهها فوق كتفه، مستشعرة بدفئه وقوته.

قالت فيما صوتها مكتوم في عنقه: «لست أدري كيف أشكرك».

أبعدها بيرس عنه برفق لكن بحزم.

- لابأس! أنتِ أنقذتِ دونالد، وأنا أنقذتكِ. صرنا متعادلين.

صحيح! لماذا إذاً تشعر برغبة في البكاء؟

- آه! الرسائل التي بعثتها إلى أخوتي بالتبني...

آه! ألهذا السبب يبقيها بيرس على مسافة تبعد قدر طول ذراعيه؟ إنها تتدخل كثيراً في شؤون غيرها. هذه مهارتها في الحياة، أن تحشر نفسها في شؤون الآخرين، حتى لو دمرت حياتها في خضم ذلك.

قال بيرس: «لقد قبلوها. إنهم لا يفهمون، لكنهم وافقوا».

كانت شاني قد راسلت كل واحد منهم، بعد أن زودتها روبي بعناوينهم الإلكترونية. قالت لهم ببساطة إن بيرس تبنى خمسة أولاد، ولم يخبر روبي بسبب خوفه من أن تتورط معه، لذا فإنها أخبرتها بنفسها. قالت لهم أيضاً إن عدم السماح لروبي بمشاركتهم حياتهم هو أكثر ما يؤذيها، وإن ما فعله بيرس هو أمر فظ، كذلك هو اشتراطهم عليها عدم مشاركة منزلها مع أي شخص تريده. لذا هل يمكنهم أن يتفضلوا برفع شرطهم الغبي عنها؟

همست شاني: «أقرأتها؟».

قال بيرس: «أخوتي الستة جميعهم أرسلوها لي. كلهم وافقوا، ورفعوا الشرط».

سألته شاني: «ألا يفهمون ذلك؟».

- إنهم لا يفهمون ذلك.

- أما أنت فتفهمه؟

حبست شاني أنفاسها.

- ربما بدأت أفهم. حسناً! ما الذي ستفعلينه الآن؟

أجفلت شاني، وقد انتزعها خارج أفكارها: «ما الذي تعنيه؟».

- خسرتِ عقد الإيجار الخاص بمعرضك الفني، لكن هنالك معارض أخرى. بلايك لديه معارف في عالم الفن. بدأ الناس يعرفون أن مايك هو

الرجل الشرير في كل ما جرى.

- آه، رائع!

- هل ستعودين إلى لندن؟

- ربما لن أعود.

- أحقاً؟

- لست أدري. لدي وظيفة رائعة هنا. سأباشرها يوم الإثنين.

ما من داعٍ لتخبره أنها ستعمل نادلة في مقهى يقع عند محطة القطار.

تردد بيرس قليلاً، ثم قال: «يسرني هذا. إن بقيتِ... فالأولاد يودون رؤيتك مجدداً».

- إنني أخطط لرؤيتهم.

- أحقاً؟

أهي تتخيل هذا، أم أن صوته يحمل الشوق؟

- أتعلمين أن روبي تقوم بمقابلة مدبرات للمنزل؟

- أخبرتني بذلك. بيرس! إنها تحب هذا. دعها تعمل كما تشاء. على أي حال، متى تعودون إلى المنزل من القصر... السبت؟

- نعم.

- روبي لم تزر المزرعة قط. سآخذها إلى هناك لتراها. إن وجدت مدبرة منزل مناسبة، سنأخذها إلى هناك لتقابلها. ربما يمكننا أن نشعل الموقد قبل عودتكم... وأن نجعله مرحباً نوعاً ما.

- ما من داعٍ لذلك.

قالت شاني: «بل هنالك داع. روبي تريد أن تفعل ذلك، وبالنسبة إلي سوف يكون وداعاً أفضل».

- هل هنالك أنواع مختلفة من الوداع؟

أجابت بكلمات لاذعة وسريعة وقد صارت فجأة غاضبة: «نعم. أنا لا أرغب بأن أكون مرتدية لباس النوم ذا الخنازير، فيما تلطخ الشوكولا أنفي. في المرة الأخيرة التي تراني فيها، سوف أتمتع بعزة النفس».

- إنك تبدين لطيفة.

أجابته شاني بكلمات مفحمة لاذعة: «أنا سيدة أعمال، ولدي مهنة. وهذا ما لم تلاحظه أنت».

- بل لاحظت ذلك.

- إذاً، سوف نكون هناك.

- لكن...!

- هذا كل شيء. أنا سأغلق الباب، إلا إذا كنت توصل الأزهار.

قالت شاني ذلك بحزم أكبر مما كانت تشعر به. قبل أن يتمكن بيرس من الرد، تراجعت إلى الوراء عبر مدخل الباب. نظرت إليه آملة نوعاً أن يأخذها بين ذراعيه، ويعانقها بجنون... أو أقله أن يودعها.

لا شيء! بدت ملامح بيرس خالية من أي تعبير. أخيراً تكلمت شاني، فعضت على شفتها قائلة: «إلى اللقاء إذاً. سأراك الأسبوع المقبل لبضع ساعات. وبعد ذلك... هذا كل شيء».

* * *

قاد بيرس سيارته مبتعداً، وكاد ذلك يقتله. بدت شاني لطيفة جداً، وكادت تفطر قلبه. حين عانقته، كادت الأمور تخرج عن سيطرته. لا تتطرق إلى هذا! اللعنة! إنه لا يستطيع أن يسألها. إنه يعرف عما يريد أن يسألها... أن تصبح... لا. مبكر جداً. هذا مبكر جداً. كما أنها رحلت، كما كان يجدر به أن يرحل عندما طلبت منه مورين المساعدة. ما الذي كان سيحدث للأولاد حينها؟ أطلق بيرس شتيمة...

رنّ هاتفه المحمول.

- نعم؟

- مرحباً، عزيزي!

- روبي!

- آمل ألاّ يكون الوقت غير مناسب لاتصالي؟

- لا... مطلقاً!

- أنا فقط أرغب بمعرفة مقاييس الأولاد.
- لماذا؟
- لأجل نادي التطريز الخاص بي. لدينا خلية عمل.

فكر بيرس أنه يتم امتصاصه داخل حفرة سوداء، ولا مجال للسيطرة على ذلك إطلاقاً. سأله روبي: «هل قابلت شاني؟».

- نعم.
- هل أطلعتها على الخبر الجيد بخصوص مالها؟
- نعم.
- وهل ستعود إلى لندن؟
- لا أظن ذلك.
- هذا لطيف.

قالت روبي ذلك، فاستطاع بيرس أن يسمع نبرة الرضى في صوتها.

- روبي!
- نعم، عزيزي؟
- لا تفعلي!
- لا أفعل... ماذا؟
- لا تفعلي ما تفعلينه.
- آه! أنا لست أفعل شيئاً.

قالت روبي ذلك، فيما تابعت: «أنت تعرفني. أنا لا أتدخل أبداً. والآن أخبرني... ما هي تلك المقاسات؟».

١١ - وداع فلقاء

مرت رحلة العودة من قصر خليج الدلافين بسلام. عندما وصل بيرس مع الأولاد إلى المزرعة رأوا الكثير من البالونات على البوابة. قال بيرس: «هنالك بالونات على بوابتنا الأمامية».

سألت وندي:

- هل تظنون أن أحدهم مسرور لأننا عدنا إلى الديار؟.

بدت وندي هادئة طيلة طريق العودة، إذ إن العودة إلى المزرعة لم تكن متعة. سوف يتوجب على الأولاد أن يبدأوا بارتياد المدرسة مجدداً. بيرس يدرك أن الأولاد في المدرسة المحلية سببوا لأولاده أوقاتاً عصيبة، لكن ما عساه يفعل؟

قاد سيارته عبر البوابة المفتوحة مسبقاً، وقال بحذر: «لعل مدبرة المنزل التي أحضرتها روبي وصلت».

قالت آبي:

- أنا أفتقد لشاني.
- شاني لم تكن مدبرة منزل أبداً.

قال برايس:

- بل كانت أفضل من مجرد مدبرة للمنزل.

نعم. بيرس يوافق على هذا. قال دونالد بصوت يشبه صوت المزمار: «هنالك سيارة متوقفة عند الحظيرة».

ثم أضاف:

- ليست سيارة شاني.

بدت السيارة كأنها . . . بل هي كذلك! سيارة للشرطة.

ماذا بحق . . .؟ هل سيخضع لتفتيش آخر؟ استنشق بيرس نفساً عميقاً. وقال:

- حسناً! يجدر بنا أن نكتشف ما الذي يجري هنا.

سألت آبي:

- هل تظنه سيكون مخيفاً؟.

قال بيرس بجرأة: «هنالك طريقة واحدة فقط لنكتشف. دعونا نذهب لنرى».

أوقف بيرس السيارة. سكون تام. . . مشوا إلى الأمام. ذهب بيرس ليفتح قفل الباب الخلفي، فتأرجح الباب ما إن لامسه. فتح بيرس الباب، فانفجر المكان بالهتاف. تراجع بيرس إلى الوراء، لكن الناس أخذوا يجذبونه. أما الأطفال فتمّ رفعهم، وحملهم إلى الداخل. سوزي أخذت آبي. سوزي؟! هاميش أخذ دونالد. أما روبي فأخذت تندفع إلى الأمام كي تأخذ بيسي من بين ذراعيه. بلايك كان هناك. . . أخوه الأكبر! انحنى بلايك ليتكلم مع برايس، ثم أرجحه ووضعه على كتفيه. نيكولاي! ألا يفترض بنك أن يكون في المكسيك؟ ودواين! الشاب من المتجر العمومي. ووالدة دواين، والصيدلي، والطبيب والشرطة، والعديد من الأزواج الذين بالكاد تعرف عليهم بيرس كجيران له، وأولادهم، وجايك طبيب خليج الدلافين جاء من القصر أيضاً مع كريستي وتواميها. هناك أيضاً جودي وجون. . . فريق القصر بأكمله. شاني راحت تشق طريقها من خلال الحشد حتى وصلت إلى وندي. عانقت الفتاة الصغيرة التي كانت تتعلق ببيرس، وقالت لها: «أنتِ معي».

أحس بها بيرس تُرفع بعيداً عنه، لكنه شعر برغبة في التعلق بها. وندي قد تكون بحاجة إليه. . . بل هو قد يكون بحاجة إلى وندي. دواين كان يحمل قالباً من الحلوى على صينية أمامه. دواين؟! قالب الحلوى بدا هائلاً، ومغطى بالشوكولا، وقد دوّنت على وجهه كتابة حمراء مشرقة تقول: «أهلاً

وسهلاً بكم في منزلكم، منا جميعاً».

حدّق بيرس في أرجاء الغرفة المكتظة. كان هنالك العديد من الأشخاص الذين لا تتسع لهم الغرفة. البعض حشروا أنفسهم في الرواق، وبعضهم على الشرفة الخلفية، فكانوا يدخلون رؤوسهم من النوافذ. وكزت والدة دواين ابنها على ظهره، فابتلع ريقه. تمكن الصبي من التكلم بصوت مخنوق، فقال: «أردنا أن نرحب بعودة عائلتكم إلى المنزل. همم. . . أمي قالت. . .».

تابعت والدته من خلفه: «. . . إننا عاملناكم شرّ معاملة. جميعنا فعلنا هذا. كان بيننا خمسة أولاد أيتام و. . . حسناً! تصرفنا بفظاظة، ولن يحدث الأمر مجدداً. الثلاجة تحتوي على أطباق طعام كثيرة الآن، لدرجة أننا اضطررنا أن نستعير الثلاجة الإضافية لدى إينيد موريهاي. على أي حال، نحن فقط أردنا أن نرحب بكم. تعرفنا بأولغا مدبرة منزلكم، وهي لطيفة. سوف تحظى دوماً بحسومات في متجرنا العمومي».

أولغا! لو قال بيرس إنه تفاجأ، فهذا كلام أقل مما يقتضيه الواقع. حدّق عبر الحشود نحو شاني. ارتدت شاني ملابس لم يرها بمثلها من قبل، إذ لبست فستاناً ذا عنق محفور وتنورة تصل حتى ربلة ساقها. فكر بيرس أنها تبدو سعيدة. حسناً! لمَ عساها لا تكون كذلك؟ فهي استعادت مالها، واستعادت حياتها. وسوف تعود إلى لندن. . .

أشارت شاني إلى امرأة في متوسط العمر تقف بجانب روبي. لا بد أنها أولغا. إنها سمينة، ترتدي سروالاً من الجينز، وقميصاً قطنية، مع جزمتين تذكرانه برعاة البقر. قالت أولغا: «مرحباً!».

- أأنت أولغا، مدبرة منزلنا الجديدة؟

قالت أولغا مبتسمة بتوتر:

- أود أن أكون كذلك.

ضحك جميع من في الغرفة ضحكة عريضة بسبب ارتباك بيرس. قالت أولغا: «الأمر يعود إليك. روبي تعلم أنني أعاني من بعض المشاكل. كنت أتبنى الأطفال، لكن قُبض علي بتهمة سلب الأغراض من المتجر. . .

الشوكولا . . . كان ذلك يوم عيد ميلاد أحد الأولاد، وكان زوجي السابق قد اقتحم منزلي فأخذ كل الأموال التي جنيتها من التدبير المنزلي. حصلتُ على إدانة الآن، لذا لم يعد يُسمح لي بالتبني. لكنني لن أسلب الأغراض من المتاجر مجدداً، أقسم بذلك».

سادت لحظة من الصمت المصعوق من قبل الجموع.

قالت روبي بوضوح في الصمت: «أعلم أنكِ لن تفعلي. لهذا السبب قلتُ إنك ملائمة لبيرس».

أضافت شاني: «روبي أفضل شخص يحكم على شخصيات الناس بشكل صائب».

لسبب ما عادت الأنظار لتتوجه إلى والدة دواين، التي استنشقت نفساً عميقاً، ثم قالت ممازحة: «إذا كانت شاني تشهد لصالحك، فلا بأس بالنسبة إلي. ما زلت سأمنحك حسومات حتى العشرة بالمئة. لكن إن كان هنالك أي عيد ميلاد وكنتِ مفلسة، تعالي إلي قبل أن تفكري بالسلب مجدداً».

فكر بيرس، مهلاً! هو لم يجرِ مقابلة مع المرأة بعد، مع ذلك يبدو أن المجتمع بأسره تقبّلها. قال دواين بنعومة، وهو ما يزال يمسك بقالب الحلوى: «تخلّ عن الأمر يا صديقي! إنه حكم النساء».

راح الناس يصيحون:

- اقطعوا قالب الحلوى، اقطعوا قالب الحلوى.

ساد المزيد من الضحك. وضِعَ قالب الحلوى على الطاولة، فقطعوه كعائلة واحدة، حيث أمسك بيرس السكين بيده الكبيرة، فيما وضع كلّ من برايس، دونالد، وندي، وآبي أيديهم فوق يده.

- با . . .

قالت بيسي ذلك وحطّت قبضتها مباشرة على وسط قالب الحلوى، ثم رفعتها إلى فمها. هذه ليست مجرد حفلة. إنها تشبه المهرجان، إذ تخللها ركوب الحمير، والرسم على الوجوه. كما أجريت مسابقات في حمل البيض بالملاعق، وسباقات بالقفز داخل الأكياس القماشية. أما الطعام فكان

متوفراً بكثرة. تحرك بيرس كما لو أنه في حلم، فراقب الأطفال . . . أطفاله. راح السكان المحليون يعانقونه ويرحبون به. تلقى الاعتذارات منهم والوعود بالكرم والسخاء من عدة أشخاص. يا لها من تجربة غامرة، نظراً لكونه رجلاً اعتاد أن يسير منفرداً. بلايك ونك، أخواه اللذان جاءا إلى هنا، ربتا على كتفه، وضحكا منه، لكنهما نظرا إليه بقلق نوعاً ما. أخوته بالتبني تربوا جميعاً في مدرسة الحياة التي وجهت لهم ضربات صعبة وقاسية، لذا أصبح انعزالهم فنّ قيّم بالنسبة إليهم، أما بيرس فيبدو أنه أخذ يتخلى عن العزلة، وهذا ما أقلقهم. هذا أمر أقلقه هو أيضاً. لكن . . .

أخيراً شعر الأطفال بالإرهاق، فأخذهم بيرس إلى الطابق العلوي إلى أسرّتهم، وعندما نزل وجد أن عملية التنظيف قد بدأت. كانت الحفلة ما تزال مستمرة في الخارج، لكن في الداخل أخذ فريق من الحاضرين يغسلون ويفركون ويمسحون ويثرثرون. رأته روبي وهو نازل عن الدرج، فوضعت خرقة تمسيح الأطباق من يدها واتجهت نحوه، وقبل أن يعرف بيرس ما تنوي القيام، غمرته بعناق أمومي كبير. أمسكت به روبي الممتلئة الجسم على مقربة منها، فأحس بيرس كما لو أنه في السادسة من عمره مجدداً. أتراها تعلم كم تعني له عناقات الطفولة تلك؟ قال لها بيرس بعدما أفلتته: «شكراً لك».

- عليك أن تشكر شاني لا أنا.

- هل نظمت شاني هذا كله؟

- شاني وسوزي أكثر امرأتين تسلطاً في العالم. اذهب، وجدها.

- أين هي؟

- قالت إنها ذاهبة لتكلم الثور.

- شاني قالت . . .؟

- قالت إنه ثور لطيف.

اللعنة! خرج بيرس من المطبخ قبل أن تتفوه روبي بكلمة أخرى، التفّ حول الشرفة، ثم سار نزولاً نحو الحديقة، ثم نحو البوابة المؤدية إلى مرعى الثور. كانت شاني تجلس على عمود البوابة. أما كلايد فكان إلى جانبها

تماماً. منظرها بمجاورة الثور الكبير جعله يشعر بالسقم.

- شاني!

- مرحباً!

بدا كما لو أنها تتوقع قدومه. قالت: «فترت لكلايد للتو بأنني غفرتُ له. لم يكن الذنب ذنبه. دواين أخبرني ما حصل. أولاد القرية تصرفوا بغباء وفظاظة. كانوا قد أصغوا إلى أحاديث أهلهم بخصوص رغبتهم في رحيلكم، لذا أخذوا الأمور على عواتقهم وتصرفوا. أنت محظوظ لأنهم لم يطردوك خارج البلدة».

- أنت غيّرت ذلك كله.

- أنا فقط أخبرتهم الحقيقة. لو أنك فعلت ذلك بنفسك، لحصلت على دعم الجميع منذ شهور».

- لم أقدر...

- ... أن تنفتح على الآخرين. ألا أعرف ذلك؟

انحنت شاني إلى الأمام فحكّت كلايد خلف أذنه اليسرى، وقالت: «كنت أخبر كلايد للتو أنك غبي».

- همم...

تردد بيرس قبل أن يقول: «هلاّ...؟».

استقامت شاني في جلستها، وقالت: «ماذا؟».

سادت فترة صمت مطولة. ثم همست شاني: «هلاّ فعلتُ ماذا، بيرس؟».

الكلمات التي تدافعت إلى رأسه رفضت أن تنطق. بغض النظر عن كل شيء، لم تعد حياته تحت سيطرته. صار لديه خمسة أولاد ومدبرة منزل مدانة تدعى أولغا. في وقت ما من فترة ما بعد الظهر سلمته روبي رزمة الكنزات المطرّزة لأولاده الخمسة. أما حين وضع دونالد في سريره، عانقه الصبي الصغير. دونالد! آخر واحد من الخمسة تقبّله الآن. رد له بيرس العناق، وأحس برغبة في البكاء. راح التيار يجرفه، ولم يعد الأمر تحت سيطرته، لكنه

بشكل ما بدأ يستمتع بالرحلة.

- هلاّ فعلت ماذا؟

سألته شاني مجدداً، إلاّ أن الكلمات التي كانت قد تكونت في داخله، اختفت الآن من أمام عينيه.

قال بيرس: «إنهم يأخذون طلبات القهوة».

- هل جئت إلى هنا بحثاً عني، كي ترى إن كنت أرغب بشرب القهوة؟

- أنا... شعرت بالقلق لوجودك مع كلايد.

سادت لحظة من السكون. أخيراً قالت شاني: «أتظنني امرأة مجازفة؟».

- أنتِ ترمين قلبك في حلبة الصراع.

- لكن هنالك أموراً جيدة قد تحصل بسبب ذلك.

قالت شاني ذلك بنعومة بالغة، لدرجة أن بيرس اضطر أن ينحني إلى الأمام حتى يسمعها. تابعت: أتعلم؟ أخواك رائعان. استعدتُ مالي بفضل بلايك اللطيف، ونك طلب مني الخروج معه في موعد غرامي».

بدت تلك أشبه بركلة في أحشائه: نك... أيها اللقيط...!

- وهل ستلبين دعوته؟

- أنا منشغلة. سوف أنشئ معرضاً فنياً جديداً.

قالت شاني ذلك وقفزت نزولاً عن العمود فجأة، لم يكن بيرس مستعداً، فارتفعت يداه بشكل فطري، وأمسكتا بها. أمسكها على مقربة منه. فكر بيرس أن رائحتها رائعة، والاحساس بها رائع. لم تتحرك شاني، بل حدّقت إلى الأعلى نحوه، وهي تبدو مرتبكة. عانقها بيرس كما لو أنه لا يريد أن يفلتها أبداً. عانقها كما لم يعانق أي امرأة من قبل، مطلقاً توقه المكبوت وشوقه إليها. لا بد أنها تشعر بما يشعر به. لا بد أنها تعلم أنها نصفه الآخر. هي الشريكة التي لم يأمل قط بأن يجدها... المرأة التي لم يكن يدرك أنها موجودة... شاني...! استمر العناق لفترة طويلة، ولم يقوَ بيرس على إفلاتها...

- القهوة!

إنه دواين يصرخ، وهو يجاهد حتى يرى ما وراء الضوء.

- هاي! أنتما، تعالا لتشربا القهوة. شاني! روبي تقول إنك سوف توصلينها بسيارتك إلى منزلها، وإن لم تحضري قريباً، فسوف تنام هنا.

تراجعت شاني خطوة إلى الوراء، فحدقت نحوه تحت ضوء القمر. فكر بيرس أنها تبدو مرتبكة خائفة؟ نعم، خائفة! لم يحتمل بيرس ذلك. فوضع يده على خدها بخفة.

- هاي! لا ترتعبي! أنا لست أطلب منك شيئاً.

- أحقاً؟

- هذا لا يعني أي شيء. إنه مجرد عناق.

- بالطبع هو كذلك. ما عساه يكون غير ذلك؟

قال بيرس وهو يحاول إبقاء صوته ثابتاً: «هاي! لدي ما يكفي من المسؤوليات. ولست مستعداً للمزيد».

الخوف الذي رآه تلاشى، وحلت محله الكآبة وربما بعض الغضب. تدبرت شاني أن تقول: «أحقاً؟».

قال لها برفق: «اخرجي من هنا، شاني. ما دام الرحيل متاحاً».

- أتعني... علي أن أهرب؟

- نعم.

سادت لحظة من السكون، ثم نادى دواين مجدداً من الشرفة، وهو يبدو غير واثق: «القهوة!».

- نحن قادمان.

* * *

غادرت شاني بسرعة بعد ذلك. ساعدت روبي على دخول السيارة، من دون أن تنظر إلى الوراء. همست روبي، فيما تلاشت أضواء المزرعة عن أنظارهما: «أكره أن أرحل. هذا لا يبدو لي صائباً».

فعلاً لم يبدُ أمراً صائباً. وجه شاني بدا متجهماً. نظرت روبي إليها بحذر ثم أشاحت بنظرها.

- أنا آسفة عزيزتي!

- الذنب ليس ذنبك. إنه وغد، عنيد، مستقل، لا يقبل التغيير.

دمدمت روبي بعد قليل: «أتحبينه كثيراً؟».

- أكثر من الحياة نفسها. تقريباً أكثر مما أحب أولاده.

- آه، شاني...!

تذمرت شاني قائلة: «لكنني سوف أتخطى الأمر. يجدر بي ذلك. أمي وأبي سوف يصلان إلى المنزل يوم غد. سوف أستعيد غرفة نومي. أنا بحاجة ماسة إلى سوزي بيل».

* * *

- بيرس!

كان بيرس يسند ظهره إلى العمود، حيث كانت شاني جالسة. أما خلفه فصار المنزل ساكناً. رحل منظمو الحفلة، فيما ظل بلايك ونك هناك وكذلك أولغا. ألقى بيرس عليهم تحية المساء، وتركهم. افترض أنهم الآن نيام. لكن ليس بلايك الذي لحق به... بلايك الذي يكبره بعامين، وهو يلعب دور الأخ الأكبر.

قال بلايك: «الجميع أمضوا وقتاً ممتعاً إلاّ أنت. كما لو أن أحدهم كبّلك بالسلاسل ورماك داخل السجن».

- اللعنة! هذا ليس صحيحاً...

قال بلايك: «آه! حتى إن أي شخص لا يعرفك حق المعرفة كان ليحزر السبب».

هل يجدر به أن يقول إنه هو نفسه لم يخمّن ذلك، إلى أن أمسكت به روبي وهي في طريقها إلى السيارة، وقالت له: «تحدث إلى أخيك. إنه واقع بحب شاني وهو لا يقرّ بذلك».

التكلم بأمور شخصية ليس أمراً سلساً لأيّ منهما، لكن لأجل روبي... قرر بلايك أن يحاول.

حدّق الأخوان في الليل لبرهة. لم يكن هناك سوى ضوء القمر

والسكون.

- تقول روبي إنك مغرم بشاني.

أخيراً قال بلايك ذلك، فكاد بيرس يختنق: «ماذا، بحق الجحيم؟».

- تقول إنك وقعت في الحب بقوة، لكنك تتصرف بعناد.

- ما أدراها؟

- روبي هي التي تعرفنا حق المعرفة. هي رأتنا في أسوأ حالاتنا، آوتنا وأحبتنا... بغض النظر عن أي شيء.

- إنها عظيمة!

قال بلايك بحذر: «شاني ابنة شقيق روبي، لذا هي تتمتع ببعض ميزاتها. نك مأخوذ بها حقاً».

- على نك أن يدعها وشأنها.

- أخبره بذلك بنفسك يا أخي الأصغر. إذا كنت لا تريدها، فأين المشكلة؟

- هي تستحق أفضل... منّا.

قال بلايك بحذر: «روبي تقول إنك واقع بحب شاني. لِمَ لا تطلب منها الزواج وتنتهي من الأمر؟».

- لأنها قد توافق.

سأله بلايك: «أتظنها تبادلك الحب؟».

فكر بيرس، إنه لا يسألني إن كنت أحب شاني. إنه يفترض ذلك. أهو أمر واضح لهذه الدرجة؟ أخيراً قال: «ربما تشفق علي، فهي رقيقة القلب».

قال له بلايك: «رأيتها تراقبك عندما حملت الأطفال إلى السرير، لكن ما رأيته على وجهها ليس الشفقة».

- أحقاً؟

قال بلايك: «إنه الحب الصافي، يا رفيقي. إنها مسلوبة العقل. أنت عالق هنا مع خمسة أولاد، والزوجة لن تحدث فارقاً كبيراً. هيا، يا أخي! حصلت على الأطفال، وأنت بحاجة إلى الزوجة».

- أتظنني أضع هذا الحمل عليها؟

رد بلايك بكلمات لاذعة وسريعة:

- لِمَ لا بحق الجحيم؟.

- لأنها كريمة إلى حد لا يصدق. إنها تشعر بأسى بائس تجاه هؤلاء الأولاد، وتعرف تماماً ما يشعرون به. وهي ترمي بقلبها داخل حلبة الصراع من دون أن تفكر بالعواقب. لو طلبت منها أن تتزوجني، وترتبط بخمسة أولاد مع أحمالهم...

- يمكنها أن ترفض.

- لن تفعل. لا يمكنها. إنها مدفوعة برقة قلبها.

- إذاً يجدر بك أن تسمح لها بذلك.

- بلايك، لو كنتَ مكاني هل كنت ستطلب منها أن تتزوجك؟ أنا واقع تحت دين هائل تجاهها. لن أكون مديناً لها بعد الآن.

- اسألها لترى ما ستكون ردة فعلها.

- لا!

- أتريدني أن أسألها بنفسي؟

- لا تكن سخيفاً!

- أنا أعني ما أقوله. أستطيع بكل بساطة أن أتناول العشاء معها، وأن أمرر لها الفكرة عرضاً... «هل تفكرين بالزواج من رجل لديه خمسة أولاد؟».

- لا!

- إذاً اسألها بنفسك.

قال بيرس بكآبة: «لا! أي نوع من الحياة اطلب منها أن تتشارك فيها معي؟».

- حياة فوضوية. أنا أوافقك على هذا، لكنها حتماً تتمتع بحق الرفض.

- لن أسألها.

- ألا ترغب بالزواج بها؟

- بالطبع. لكنني لن أطلب ذلك. لديها حياة تعيشها بعيداً عني وعن أولادي.

بدا المنزل القديم كأنه يغط في نوم عميق. لكن في الطابق العلوي على المقعد. جلست وندي مرتدية رداء نومها، وهي تعانق ركبتيها. كانت نافذة غرفة نومها مفتوحة على مصراعيها، تماماً فوق المكان الذي أجرى فيه بلايك وبيرس هذا الحديث.

عانقت وندي ركبتيها أكثر، ثم عادت وصعدت إلى سريرها. حاولت أن تغمض عينيها، لكن امتد الليل أمامها...

١٢ - شهر عسل عائلي

استيقظ بيرس من النوم، فوجد وفداً واقفاً قرب سريره؛ آبي، دونالد، وبرايس. أجفل، ونظر إلى الساعة المجاورة للسرير، فأجفل ثانية. بالكاد تجاوزت الساعة السادسة صباحاً.

- الوقت ما يزال مبكراً جداً يا أولاد!

قالت آبي: «نحن عاجزون عن إيجاد وندي».

قال برايس: «رتبت سريرها وتركت ورقة عليها ملاحظة».

قال دونالد: «ها هي الرسالة!».

وناوله إياها. بدا وجهه الصغير قلقاً حين أضاف: «سيدني تبعد ثلاثمئة وتسعة وعشرين كيلومتراً».

حدق بيرس بدونالد، ثم حدّق بالرسالة. ماذا بحق الجحيم...؟

«ذهبت لأرى شاني. لدي شيء هام أريد أن أسألها إياه... أمر لا أستطيع أن أقوله لبيرس. هي أعطتني عنوانها، لذلك فأنا أعلم إلى أين أنا ذاهبة. سأطلب من شاني أن تتصل بكم هاتفياً ما إن أصل إلى هناك».

همس بيرس: «متى رحلت؟».

همست آبي: «نحن لا نعلم. استيقظت فوجدت سريرها مرتباً».

قال دونالد: «تحسّست الأغطية. إنها باردة».

وندي... الفتاة التي يمكن الاعتماد عليها، تذهب سيراً على القدمين إلى سيدني؟ أسقط بيرس الرسالة، وتناول سروال الجينز، ثم صرخ: «بلايك! نك!».

خرج مسرعاً من غرفة النوم، وهو يزأر طلباً لأخويه. خلفه تحركت بيسي

www.dewity.com Breathless

فاستيقظت على الفور، وبدأت تزعق، لكن بيرس لم يولها اهتمامه.

- استيقظوا بحق الجحيم! بلايك، نك، أولغا!

حين وصل بيرس إلى أسفل الدرج رفع سترته فوق رأسه ليلبسها. راح يتلمّس كومة الأحذية المتروكة على الشرفة. في ذلك الحين أخرج أخواه رأسيهما خارج الغرفتين اللتين ينامان فيهما. أما أولغا فظهرت من آخر الرواق وهي مكلّلة بلفافات الشعر. سأل نك: «هل هنالك حريق؟».

قال بيرس وهو يتجه نحو الباب: «أنا ذاهب لأبحث عن وندي. إنها تحاول أن تصل إلى سيدني. اللعنة! إنه أمر مستحيل. اهتموا بالأولاد. أيها الأولاد سأعود حالما أجدها. أعدكم».

كان بلايك صاحياً بما فيه الكفاية ليندفع إلى الأمام، ويسأل بيرس: «هل تحمل هاتفك الجوّال؟».

قال دونالد من أعلى الدرج: «إنه لا يحمله. إنه في الشاحن الكهربائي. سأحضره».

- إنها في الخارج...

- لكن لو وجدها أحدهم وأحضرها إلى المنزل، نحن بحاجة إلى إخبارك بذلك. هل نعرف إلى أين هي متجهة؟

- إلى منزل شاني.

- هل لدى شاني هاتف؟

هل تحمل شاني هاتفاً؟ اللعنة! كيف عساه يعلم؟ إنها ربما ما تزال مع... جولز، أو روبي. قال: «ربما».

- سأتصل بروبي كي أكتشف ذلك.

قال بلايك ذلك، أما دونالد فاندفع نزولاً على الدرج، وناوله الهاتف الجوّال. في الواقع رماه إلى بيرس، الذي انطلق نحو سيارته.

صاح بلايك: «أين ستبحث؟».

- على الطريق السريع.

- حسناً! أخي، اذهب. نحن سنبحث هنا. أجب على هاتفك حين يرن.

صاح بيرس: «سأفعل. بيسي تحتاج إلى تغيير الحفاظ».

ثم رحل...

أحس بيرس أن الرحلة بالسيارة من المزرعة حتى البلدة هي الأطول في حياته. لم يكن هناك من طريق آخر للوصول إلى سيدني، ربما تعلم وندي ذلك. سيتوجب عليها أن تمشي إلى البلدة كي تصل إلى الطريق السريع. سيتطلب منها الوصول إلى هناك عدة ساعات. ماذا بعد ذلك؟ هنالك حافلات، لكنها لا تعرف توقيتها. ليس بحوزتها أي مال.

عندما وصل بيرس إلى حدود المدينة كان قد بدأ يشعر بسوء كبير. رنّ هاتفه...

أوقف سيارته جانباً، ثم حمل الهاتف، وكأنه شيء سام.

- إنها آمنة!

قال بلايك ذلك، فخرج الهواء من رئتي بيرس بقوة، كما لو أن أحدهم ضربه على ظهره.

- آمنة؟

قال له بلايك: «إنها في مركز الشرطة يا رجل. رآها أحد سائقي شاحنات نقل الحليب، وهي ترفع إبهامها في الهواء لإيقاف أية سيارة عابرة حتى تحصل على توصيل مجاني. لكن الرجل رب عائلة، وقد تحلّى بما يكفي من العقلانية كي يأخذها مباشرة إلى الشرطة. إنها تنتظرك هناك. هي بأمان».

* * *

- شاني؟

كانت شاني تغطُّ في نوم عميق في غرفة روبي الاحتياطية، لأنها ظلت تروح جيئة وذهاباً حتى الساعة الخامسة صباحاً. تطلّب الأمر أكثر من عشرين رنّة حتى أدركت أن هاتفها يرنّ.

قالت شاني وهي ما تزال نصف نائمة: «مرحباً!».

قال صوت رجولي عميق لم تتعرف إليه: «شاني؟».

- نعم.

- أنا الشرطي بوب ليستر من مركز شرطة كراغي بورن. أتذكرين أنك أعطيتني رقمك منذ عدّة أسابيع؟

- نعم.

عظيم! إنه شرطي يوقظها عند الفجر كي يطلب منها موعداً غرامياً. قالت وهي تحاول التركيز: «آه... ! بماذا يمكنني أن أخدمك؟

قال الشرطي برفق: «لدي شخص هنا يود أن يتكلم معكِ. هاكِ وندي! إنها لكِ».

* * *

كانت وندي تجلس في قاعة يستخدمها رجال الشرطة خلال الاستراحة. كانت تشرب الشوكولا الساخنة، وقد بدت عيناها هائمتين فوق كوبها. فتح الشرطي الباب، فتشنجت. ظن بيرس أن قلبه سوف ينكسر هناك، وفي تلك اللحظة بالذات. همس: «وندي!».

وضعت وندي كوبها بحذر شديد على الطاولة، ورفعت ذقنها متحدية. لكن ذلك لم يجدِ نفعاً، إذ ترنح ذقنها فأنزلته مجدداً. إنها ما تزال فتاة صغيرة جداً: «هل أنت غاضب مني؟».

همست وندي بذلك، وهذا كان كافياً.

ركل بيرس الكرسي جانباً، ثم تقدم منها، وعانقها. طمر رأسه في خصلات شعرها القصير الجميل. اللعنة! إنه يبكي.

- إنها بخير.

قال الشرطي ذلك من خلف بيرس، فجاهد هذا الأخير ليستعيد رباطة جأشه. عانق وندي أكثر بعد، ثم تمكن أن يبعدها بما يكفي عنه، حتى يستطيع رؤية وجهها. بدا وجهه ملطخاً بالدموع تماماً.

همست وندي: «أنا آسفة!».

- ما من داع لأن تأسفي. المهم أنك آمنة.

تكلم الشرطي وقد حمل صوته لمحة تأنيب قائلاً: «لقد مشت لساعات. لا

أحد يستعمل ذلك الطريق خلال هذا الوقت من الليل. شاحنة نقل الحليب تبدأ بالتجوال عند الساعة السادسة، وجدها السائق عند الجولة الأولى. كانت ترفع إبهامها كما لو كانت معتادة على إيقاف السيارات، وحين توقف، هربت».

- هو... أنا كنت...

حاولت وندي أن تجعل صوتها واضحاً، لكنها فشلت. بدت مرتعبة، وراح جسدها بأكمله يرتجف. هذه الطفلة تعلمت بالطريقة الصعبة أنها لا تستطيع أن تثق بالرجال.

قال الشرطي: «لم يعرف السائق ما يجدر به أن يفعله، لكنه لاحقها، وأمسك بها، ثم أحضرها إلى هنا. أثناء الرحلة بالشاحنة إلى هنا، كان قد هدأ من روعها قليلاً، فقد اتضح أن ابنه في صفها في المدرسة، لكنها بدت خائفة إلى حد كبير».

- اللعنة، وندي... !

- أردت أن أذهب إلى شاني.

قال الشرطي: «دبّرت لها ذلك على الأقل. فقبل اتصالي بمنزلك اتصلت بشاني».

واجه بيرس صعوبة في استيعاب ذلك، فقال: «هل اتصلت بشاني؟».

- بما أنها تكبدت ذلك العناء، ونحن أوقفنا عملية فرارها، أقل ما استطعت أن أفعله هو السماح لها أن تتصل بشاني.

- هل أعطتكِ شاني رقم هاتفها؟

سأل بيرس وندي، فهزّت رأسها نفياً، ثم طمرت رأسها في كتفه مجدداً.

- بل أعطتني أنا الرقم.

قال الشرطي ذلك وقد بدا خجولاً نوعاً ما. أشار إلى قطعة من الورق موضوعة على المكتب، فدمدم قائلاً: «شاني أعطتني رقم هاتفها منذ عدة أسابيع. كنت سأستعمله، لكنها كانت عالقة مع كل هؤلاء الأطفال. أنا لست رجلاً يحب العائلات».

* * *

أخذ بيرس وندي إلى المنزل. جلست الفتاة على المقعد المجاور للسائق كما لو أنها ما تزال خائفة، وقد بدت أصغر من عمرها. لم يستطع بيرس أن يستنتج السبب، أما هي فرفضت التكلم.

- أنا فقط أردت أن أسألها شيئاً ما. أنا آسفة!

همست وندي بذلك، وهذا كل ما قالته.

- وندي لو رغبت أن تسألي أي شخص أي شيء... لو رغبت أبداً بزيارة أي شخص... فقط اطلبي مني. أقسم أنني سآخذك.

- أعلم. لكنني كنت بحاجة لأن أكلمها بمفردي.

عندما وصلا إلى المنزل، ألقت أولغا نظرة واحدة عليها مظهرة لها مدى استيائها. إنها أمٌ حقيقية.

- أنتم البقية... دعوها وشأنها، لقد تعرضت لصدمة سيئة. انظروا إلى هاتين القدمين... بعد أن مشيتِ تلك المسافة وأنتِ تنتعلين الصندال... آبي تعالي واجلسي إلى جانبها ريثما أغسلها.

استدارت نحو بيرس، وقالت له: «أنت حضّر لها بيضة لذيذة طرية مع الخبز المحمص. سوف نطعمها إياها في حوض الاستحمام».

قال بيرس ببلاهة: «الخبز المحمص؟».

- هاي! حتى أنا أعرف كيف أحضّر ذلك. اللعنة، يا أخي! أمامك درب طويل في طريق الأبوة.

قال نك ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة. جميعهم كانوا يبتسمون ابتسامات عريضة.

انتقعت وندي في حوض الاستحمام، فيما أكلت الخبز المحمص مع البيض. بعدئذٍ وضعتها أولغا على الديوان القديم في زاوية المطبخ كي تنام. قالت لها أولغا: «لن ترغبي بأن تكوني وحدك في الطابق العلوي. أنتم البقية اذهبوا إلى الخارج. أنا سأحضر بعض الخبز».

همست وندي: «آبي».

- سوف أبقى معها.

أحس بيرس أن قلبه سوف ينكسر مرة ثانية من جديد.

- ليس هنالك من شيء تفعله أنت هنا.

أخبرته أولغا بذلك، ثم رقّت كلماتها وهي تعطيه الأمر. تابعت: «اذهب لتحلب الأبقار إذا أردت».

قال نك: «هاي! علّمنا كيف تفعل ذلك».

سأله بيرس: «ألن تعودا أنتما الاثنان من حيث جئتما؟».

قال بلايك: «لا! نحن ننتظر الحدث التالي».

وهذا ما حدث تقريباً بعد مرور دقيقتين على تناولهم الطبق الرئيسي، الذي أعدته أولغا للغداء، وهو لحم العجل المشوي اللذيذ، وبالتحديد حين بدأت بتقطيع فطيرة التفاح. كانت وندي تغط في النوم في الزاوية، أما بيسي فكانت تقذف الطعام حول كرسيها العالي، فيما تحلق الآخرون حول الطاولة.

دخلت شاني مرتدية سروال الجينز مع سترة، وبدا من الواضح أنها لم تأخذ وقتها لتمشط شعرها. بدت مخطوفة الأبصار. قالت: «مرحباً!».

ساد صمت ملؤه الذهول. قال بيرس ببلاهة: «شاني!».

صرخت آبي كما لو أنها لم ترها منذ عام قائلة: «شاني! شاني هنا... وندي. استيقظي... شاني هنا».

سألها بيرس، وهو يحاول أن يجعل صوته فعّالاً: «لِمَ أنت هنا؟».

- أنا هنا لأسألك إذا كنت تريد الزواج بي.

كان بيرس يغرف بالملعقة التفاح المغطى بالكريما ويوصله إلى فم بيسي، فتجمدت يده، وقد وصلت الملعقة في منتصف طريقها إلى فم بيسي. حول الطاولة بقي جميع الآخرين متجمدين، إلا أنهم جميعاً استعادوا رشدهم قبل أن يفعل بيرس. قالت آبي بصوت يدل على الرضى العميق: «يا إلهي! أنا أريد أن أكون الفتاة التي تحمل الأزهار. دونالد لا يحق لك أن تأخذ كل الكريما».

- رائع! أترغبين بتناول الغداء؟

قال نك ذلك وهو يتحرك على المقعد الخشبي الطويل كي يفسح لها المجال لتجلس.

- أراهن أنكِ لم تأكلي بعد.

نهضت أولغا، وقالت: «ما زال هنالك لحم مشوي. أم أنك تريدين أن تنتقلي مباشرة إلى فطيرة التفاح؟».

- دعي الشاب يجيب أولاً.

قال بلايك ذلك، فحلّ الصمت عليهم من جديد.

حدّق بيرس بشاني، وقال: «أنا لست... أنا لست أفهم».

- وندي قالت إنك ترغب في الزواج بي.

قالت شاني ذلك وهي ما تزال واقفة في مدخل الباب. استيقظت وندي، لكنها لم تتحرك، بل تقوقعت تحت البطانية. قالت شاني: «وندي تقول إن السبب الوحيد الذي يمنعك من طلب الزواج بي هواعتقادك أنني لا أريد الأولاد، لكن وندي تقول إنها ستعتني بالأولاد. هي عرضت أن تذهب وإياهم جميعاً إلى دار للرعاية».

التفتت العيون جميعها نحو وندي. همست وندي من مكانها المحايد قائلة: «هذا... هذا صحيح. قال لنا مسؤولو مصلحة رعاية شؤون الأطفال إن هنالك منازل مخصصة لعائلات كبيرة كعائلتنا. هناك يقومون برعايتنا. وأنا فكرت... ربما نستطيع القدوم إلى هنا خلال عطلة نهاية الأسبوع. في بعض الأحيان».

تكلمت شاني وقد بدت فجأة عنيفة: «ما رأيك لو بقيتِ هنا؟ ما رأيك لو انتقلتُ أنا إلى هنا، فنستمر على حالنا كما هو الآن؟ أنا وبيرس وأولغا ووندي ودونالد وبرايس وآبي وبيسي. وكل شخص آخر يمكنه أن يخطر ببالنا».

تدبر بيرس أن يقول: «لا يمكنكِ».

- لِم لا؟

- مهنتكِ.

ردت شاني قائلة: «فلتذهب مهنتي إلى الجحيم».

لكنها عادت وابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «هذه مقاطعة يؤمّها السياح، والناس يأتون إلى هنا أيام الأحاد كي يزوروا المعارض الفنية. بعض مالكي المعارض الفنية في بادينغتون والروكز سينتلقون إلى الريف، لأنهم سيحصلون على عدد أكبر من الزبائن هناك».

قال نك متفكراً: «لكن هذه المقاطعة ليست سياحية بامتياز».

قالت شاني وهي تبتسم: «ستصير كذلك عندما يسمع الناس بالمعرض الفني الساحر الذي سأفتتحه هنا».

قال بلايك: «خليج الدلافين قد يكون منطقة أفضل».

تابع بلايك قائلاً: «منطقة خليج الدلافين تحتاج إلى بعض الثقافة. المواصلات ليست مشكلة بالنسبة لبيرس، كما أنه غالباً ما يعمل في منزله. يمكنكما أن تشتريا منزلاً هناك، وتفتتحان أفضل معرض فني في العالم، فيما يتابع بيرس عمله بالهندسة المعمارية. يمكنكما استخدام هذا المكان للعطلات».

تدخل نك وهو يقول: «مهلا! يوم افتتاح قصر لوغانايك تكلمت مع هاميش وروبي. كلاهما يرغبان بإنشاء شبكة من الأماكن، يمكن استخدامها لصالح الأولاد المحتاجين. بل أكثر من ذلك، لأجل العائلات التي تمرُّ بأزمات طارئة، والأمهات العازبات اللواتي يواجهن أوقاتاً عصيبة. يمكننا أن نهيء هذه المزرعة كي تخدم الهدف النبيل نفسه. نحن أولاد روبي السبعة، يمكننا أن نوظف ما يكفي من المال كي نُنجح المشروع. يمكننا أن نسميها مزرعة روبي. سوف تحب هذا».

كان بيرس يواجه صعوبة في استيعاب أي كلمة: «ماذا بحق الجحيم...؟».

قال نك: «نحن سنفعل ذلك. قد نضطر إلى نقل كلايد إلى مكان أبعد قليلاً عن المنزل حتى نضع بعض الحيوانات اللطيفة مع الأولاد. الأحصنة الصغيرة، القطط الجميلة وكلب عجوز سمين. كما سنحضر بضع مدربات

لطيفات مع الأطفال للمنزل، وبضع مساعدات لطيفات».

قالت أولغا منقطعة الأنفاس: «أنا أستطيع أن أكون كذلك».

لكنها عادت، ونظرت إلى بيرس قائلة: «لكن لا. أنا أريد أن أبقى معكم في خليج الدلافين، لدي صديقة تدعى مايبيلاين، يمكنها القدوم إلى هنا. كانت تمتلك مزرعة قبل أن يهجرها زوجها مع امرأة أخرى ما جعلهما كلاهما مفلسين. إنها تحب الأولاد».

أضاف بلايك: «روبي تود الانتقال إلى خليج الدلافين. هي أخبرتني بذلك. هنالك نادٍ جيد للتطريز هناك. لذلك كل ما أنتم بحاجة إلى فعله هو أن تجدوا منزلاً كبيراً هناك».

قال نك: «أظن أنه يجدر بروبي أن تحصل على منزلها الخاص».

علق بلايك: «لكن ليكن بالقرب من منزلك».

وقف بيرس وقال: «اعذروني!».

سألته آبي بصوت لطيف: «هل تريد أن تتزوج شاني؟».

سكت الجميع، ونظرت شاني إلى بيرس، أما هو فبادلها النظر. قال: «نعم».

أطلق الجميع أنفاسهم بتنهيدة جماعية، ثم أضاف بيرس: «لكنني بحاجة إلى أن أسألها».

قال بلايك: «ما من داع لذلك. فقد أُنجز العمل. أولغا، هل يمكنكِ أن تمرري لنا الفطيرة إلى هنا، أرجوكِ؟».

كان بيرس في وسط الطاولة. ناولته أولغا الفطيرة. ناولها بيرس لبلايك من دون أن يفكر. بدت شاني مرتبكة، أما البقية فتابعوا تناول الحلوى.

زمجر بيرس: «اتركوا القليل لنا أو ستموتون».

حثّته أولغا قائلة: «إذا كنت تريد أن تسألها أن تتزوجك، فافعل ذلك بسرعة. بلايك تلك القطعة كبيرة جداً. تسع حصص متساوية. أنت اقطع الفطيرة ونحن سنختار».

أخذها بيرس إلى الحديقة. مشى بها نحو البوابة، ثم توقف.

قالت شاني بتردد: «إنك تبدو... غاضباً».

استدار بيرس ليواجهها: «أنا أحب أن أحظى ببعض السيطرة على الأمور».

- وأنا أيضاً.

- أتحبين الأولاد؟

قالت شاني: «بالطبع أحبهم».

- هل تعرفين ما الذي ستورطين نفسك به؟

همست شاني: «سيكون الأمر على ما يرام. إذا...».

- إذا ماذا؟

- إذا كنت تحبني.

جمد العالم في مكانه. أخيراً قال بيرس: «ما الذي يجعلك تعتقدين أنني لا أحبكِ؟».

- لم تقل لي أبداً.

- لست أدري كيف أفعل ذلك.

- إنه أمر سهل.

قالت شاني ذلك، وقد جاء دورها لتبدو ساخطة. شبكت ذراعيها حول عنقه، ثم وقفت على أطراف أصابعها. عانقته بخفة فائقة، ثم تراجعت قليلاً إلى الوراء قبل أن يتمكن من التجاوب معها. همست قائلة: «هكذا تحب. بيرس ماك لاكلان، أنا أحبك. أحبك من قمة رأسي حتى أخمص قدمي. أحبك أكثر مما ظننت نفسي قادرة على أن أحب أي شخص. أحبك حتى أكثر مما أحب سوزي بيل».

- سوزي بيل؟!

- لم تتعرف إليها بعد. ستتعرف إليها قريباً. إنها على وشك أن تجعل وندي ابنتنا سعيدة جداً.

- وندي... ابنتنا؟!

همست شاني: «إنها وندي فتاتنا الصغيرة الرائعة. أكثر الأطفال شجاعة.

أنا أحبها حُباً جماً».

- شاني...!

كانت شاني ما تزال واقفة على أطراف أصابع قدميها، وما زالت ممسكة به: «نعم يا حبي».

- لست أعرف بشأن مسألة الحب.

- ألا تظن أنك قادر على أن تحبني؟

قال بيرس وهو يبدو مبهوراً: «يبدو أنني قادر. يبدو أنني كذلك».

قالت له شاني وهي تعانقه مجدداً: «حسناً! هاك اختبار. سأنتقل إلى هنا على أي حال. أنا أحب هؤلاء الأطفال. روبي أحبتهم أيضاً وكذلك أولغا. لقد استعدت لي للتو مبلغاً كبيراً من المال، لذا يمكنني أن أستأجر منزلاً كبيراً رائعاً في منطقة خليج الدلافين، وأنشئ معرضاً فنياً إلى جانبه. يمكنني أنا وأولغا وروبي أن نأخذ الأولاد وأن نحبهم إلى الأبد. يمكننا أن نكون عائلة واحدة ضخمة. وأنت يمكنك أن تنسل عائداً إلى حياتك المستقلة في سيدني، وأن تمارس دورك كأهم مهندس معماري في العالم».

- أنا...

- أنا جدية، بيرس.

قالت شاني ذلك وقد بدت جدية. خلا صوتها من الضحك. تابعت كلامها: «وندي أخبرتني أنك لن تطلب مني الزواج لأنك ظننتني سأكره أن أتقيد بالأولاد. أهذا هو الحال معك؟ لأنني سوف أقدم لك عرضاً، وأنا جدية بذلك. يمكنك أن تعود إلى حياتك السابقة وسوف نعيش بسعادة إلى الأبد من دونك».

ما تعرضه عليه بدا هائلاً لدرجة أنه أحس بالدوار. استعادة حياته السابقة... استقلاليته. وندي، دونالد، برايس، آبي، بيسي، شاني، روبي وأولغا يعيشون سعداء في خليج الدلافين، من دونه.

فجأة بدت له فكرة وجوده من دونهم باهتة جداً، ولم يقوَ على احتمالها: «لا!».

- لا؟ إذاً الخيار التالي هو من دوني أنا. إذا كنت لا ترغب بي، يمكنني أن أزوركم فقط.

- لا.

- ألا أستطيع أن أزوركم؟

- لا، أنا لا أريدكِ.

- أنا أواجه هنا صعوبة في الفهم نوعاً ما.

فجأة صار الأمر واضحاً كالبلور. على الرجل أن يفعل ما عليه أن يفعله. هي قامت بعرض الزواج عليه. هي رمت بقلبها داخل الحلبة. أخبرته أنها تحبه. إن الهاوية التي وضعتها أمامه، أي الحياة من دونهم، هو أمر جعله يرى ما لم يكن قادراً على رؤيته حتى الآن. إنه مغرم بجنون وعمق وجموح بكل فرد منهم. نزل بيرس راكعاً على إحدى ركبتيه. أخذ يديها بين يديه، وقال: «شاني! أنا أحبكِ».

بدت شاني مسرورة. قالت: «أحقاً؟».

- أحبك، وأريدك أن تتزوجي بي.

قال بيرس ذلك، وفجأة سُمع الضحك خلفهما. كانت شاني ما تزال تبتسم، لكن غشيت الدموع عينيها.

- بيرس... هل أنت واثق؟

- لم أكن أبداً واثقاً من أي شيء أكثر طيلة حياتي. أنا أحبك كثيراً إلى درجة أنني لا أحتمل أن أفكر بأن تتخلي عن أي شيء. أنا أريدكِ أن تحظي بأفضل حياة، وها أنا أقيدكِ بنا جميعاً.

- لو لم تكن مرتبطاً بهم لما كنت ستتمتع بنصف الجاذبية التي تتمتع بها الآن.

- أحقاً؟

أقرت شاني:

- حسناً! هنالك مُربٍ على ياقتك.

- هلا تزوجت بي؟

حدّقت شاني نزولاً نحوه لدقيقة مطولة، ثم ابتسمت وابتسمت. أخيراً نزلت على ركبتيها كي تنضم إليه. جذبته بين ذراعيها وأمسكت به.

كانت روبي قد بذلت قصارى جهدها كي تصحح مسار عالمه منذ طفولته، لكن هذه المرأة الحيوية الصلبة ذات الشعر الأحمر علّمته أخيراً كيف يجب أن يكون العالم. شاني هي عروسه المعجزة!

همست شاني: «بالطبع سأتزوجك. بالطبع سأفعل. آه، يا حبي. بيرس، حبيبي... أهلاً بك في ديارك».

* * *

إنها جنة لشهر العسل.

شواطئ أصلية وغابة مطرية رائعة وشاليهات فخمة، والأهم هو الخصوصية. أمضت شاني وبيرس هناك ثلاثة أيام من شهر عسلهما. ثلاثة أيام من النعيم المطلق، حيث لم يكن هنالك أي ولد على مرمى نظرهما.

- بالرغم من حبي لأولادنا، لتحل اللعنة علي لو أخذتهم إلى شهر عسلنا.

قرر بيرس ذلك، وبدا جدياً في بلاغه النهائي. تولّى القيادة كرجل فعل ما يتوجب على الرجل ان يفعله.

حصل والدا شاني وروبي وأولغا وسوزي على مبتغاهم بإجراء حفل زفاف في خليج الدلافين. جرى حفل الزفاف بحضور فتاتين تحملان الأزهار، إضافة إلى سيدة شرف واحدة رائعة مشرقة تبلغ السبعين من العمر، فضلاً عن العديد من الأصدقاء والأقارب، حيث وافقت شاني على الزواج ببيرس بحنان ووداعة.

استلقيا في خليجهما الصغير، في مكانهما المثالي الخاص بهما. لم يكن يُسمح بقدوم أكثر من ستة أزواج في آن معاً إلى الجنة، ما جعل الشطآن وافرة وعديدة. استلقت شاني بين ذراعي بيرس، فيما الشمس تشرق بنعومة على وجهها. بدت مرتوية بالحب وبالسعادة...

- أنزلوا المرساة. استفيقا أيها الكسولان!

فجأة تبدد هدوء صباحهما. رفعا أنظارهما إلى الأعلى، فرأيا زورقاً صغيراً ذا مجذافين، يقترب نحوهما. رأيا رجلين يمسكان بالمجاذيف، وأربعة أولاد داخل الزورق؛ إنهم بلايك ونك ووندي وبرايس ودونالد وآبي. تعثر بيرس وهو ينهض واقفاً على قدميه، وجذب شاني المخطوفة الأبصار معه. بدأت شاني تحمر خجلاً حين جذبها بيرس نزولاً نحو حافة الماء لملاقاة الزورق القادم.

وصل الزورق إلى الشاطئ، وأخذ الأولاد يتعثرون خارجين منه، وهم يهتفون ويطرشون الماء ويحيطونهما بالضحكات. سأل بيرس: «من المؤكد أنكما لم تجذفا طوال المسافة إلى هنا من البر الرئيسي».

قال نك بفخر: «استأجرنا يختاً. ما زالت روبي مع أولغا وبيسي على متنه».

قالت وندي وهي تقهقه: «روبي هي القبطانة. لكن سام يساعدها».

سام. أخ آخر لبيرس...

- لا يسمح لكم بالقدوم إلى هنا.

قال بيرس ذلك وهو يحاول أن يبدو صارماً، لكنه فشل.

قالت وندي: «نعرف ذلك. نحن فقط نطمئن عليكما».

فتثرت آبي قائلة: «كي نتأكد من أنكما لستما مشتاقين لنا كثيراً جداً».

ضحكت شاني إلى درجة أنها أحست برغبة في البكاء، ثم حملت آبي بين ذراعيها، وعانقتها. سأل نك: «هل ترغبان بالمجيء معنا؟».

قال بيرس: «لا!».

فابتسم شقيقاه ابتسامة عريضة. قال نك: «هاي، يا أخي! هل تقول لنا حقاً نحن عائلتك إنك لا تريدنا؟».

زمجر بيرس قائلاً: «أنا لا أريدكم لأسبوعين، ثم سوف أحصل عليكم لبقية الحياة».

قالت آبي: «يمكنك أن تحظى بشهر عسل آخر، حين تحتاج فعلاً إلى واحد».

قالت وندي: «هل أنت واثق من أنك لم تملّ من شهر العسل هذا؟ تبدوان وحيدين هنا».

- لسنا وحيدين بقدر ما تظنين.

ما إن أخفضت بصرها، حتى ابتسم بيرس ابتسامة عريضة وحملها بنفس السهولة التي حملت بها شاني آبي، وقال: «أنت تستمتعين بعطلتك، ونحن نستمتع بعطلتنا».

قالت آبي: «أعددنا الغداء من السندويشات. هل ترغبان بتناول الغداء معنا؟».

قالت شاني، وهي تضحك ضحكة مكتومة: «نعم».

قال نك وهويبتسم لها ابتسامة عريضة: «يمكنكما أن تبدآ شهر عسلكما من جديد بعد الغداء».

قال له بيرس: «لا تبتسم لزوجتي».

صرّحت شاني قائلة: «بل يمكنه أن يبتسم لي. إنه فرد من العائلة. العم نك! أين هي السندويشات؟».

قال بيرس: «سوف يتم اعتقالكم».

ردت شاني بجواب مفحم وسريع قائلة: «إذاً سوف نحتجز كلنا سوياً. وهو ما يجب أن يحصل. القليل من شهر العسل تتخله فترات صغيرة مع العائلة».

قال بيرس: «مع عائلة كبيرة».

قالت شاني بصفاء: «لا بأس بذلك. شهر عسل صغير وعائلة كبيرة. نحن نحب هذا. أليس كذلك؟».